الدِّيوانُ السَّادِسُ

ضَربُ الكَلِيم

نَقَلَهُ إِلَى العَرَبِيَّةِ شِعرًا

الدكتور عبد الوهّاب عزّام

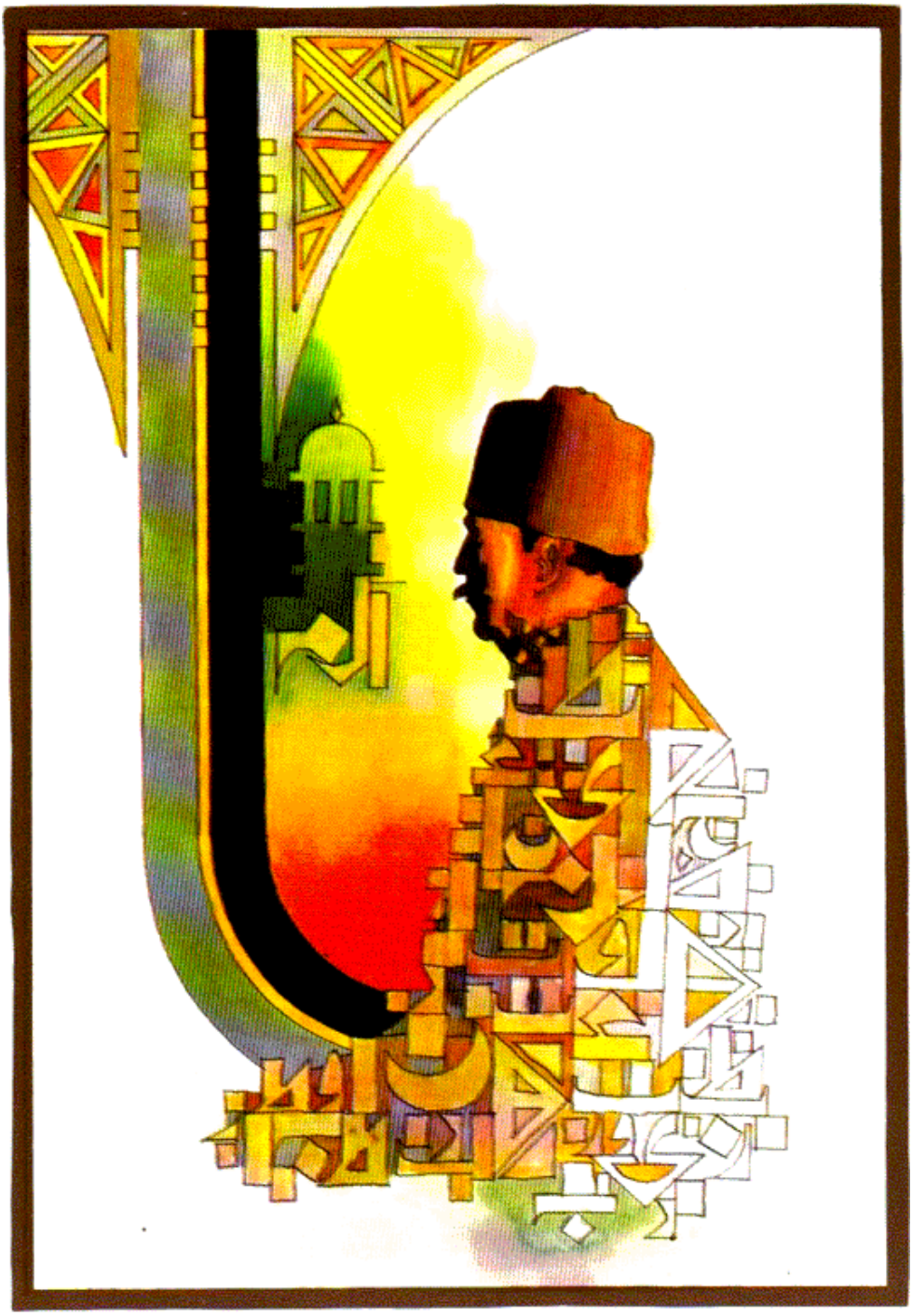

نوائے صبحگاہی نے جگر خوں کر دیا میرا
خدایا جس خطا کی یہ سزا ہے وہ خطا کیا ہے؟

هذا الديوان الثالث[1] لمحمد إقبال باللغة الأردوية ، نُشر عام ١٩٣٦م ، ولم ينشر في حياته ديوانٌ بعده ، يشتمل هذا الديوان على آراء ونظرات في الناس جماعات ووحداناً وفي الدين والتربية والفنون والأدب والسياسة ، فهو أدخل في الفكر والفلسفة ، ولكن فيه من العاطفة والخيال ما يدخله في الشعر .

وكل حقيقة في هذا الكون أهل أن تدخل في الشعر ، إن صبغتها عاطفة الإنسان ، أو صورها خياله ، وموضوعات الشعر تتوالى من محيط دائرته إلى مركزها ؛ بعضها عند المحيط يدخل في الشعر قليلاً ، ويجاورُ ما هو خارج الدائرة . وبعضها أدخل في الدائرة ، وهكذا تتوالى إلى مركز الدائرة ، على قدر نصيب الموضوعات من العاطفة والخيال .

فالكلام في هذا الديوان (ضرب الكليم) شعر يقارب الحقائق المجردة أحياناً ، لكنه في جملته أقرب إلى المحيط منه إلى المركز .

والديوان في جملته ضرب يفجر الماء من الحجر لا موسيقا وغناء ، كما قال إقبال :

كفاحٌ شديد ، وضربٌ سديد فلا تبغ في الحرب عزف الوتر

ومن أجل هذا سمَّاه إقبال « ضرب الكليم » ، رمزاً إلى قصة موسى عليه الصلاة والسلام حين ضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً .

فلعل القارىء يقدِّر خقائقه في معرض من الشعر شفاف أكثر مما يلتمس فيه خيال الشعر وزينته وبهجته .

---

(١) وهو الثالث بالأردوية ، وأما بترتيب الدواوين بالفارسية والأردوية فهو السادس .

الأول : ثورة على « الإسلام غير المنزل من الله » وضعه الأعاجم وخيلوا إلى الناس أنه عين الإسلام ، وفرضوه على الأمة التي بُعثت لتمحو ما لا يلائم الدعوة القرآنية . وكان هذا الكيد للإسلام انتقاماً من الهزيمة التي أصابت الأعاجم بسيوف المسلمين . فقد علموا أن سرَّ القوة والسطوة في هذه الأمة المجاهدة ، سنن القرآن وعقائده التي تبعث الحياة في النفوس . فكادوا لها ليبعدوها عن القرآن ، ويربكوها في حبالة « الإسلام غير القرآني » . وقد أحكموا كيدهم حتى حسب المسلم الغرُّ هذا السراب ماءً . لقد أدخلوا في الإسلام فلسفة اليونان المخدرة ، وخضوع المجوس للسادة ، وشريعة اليهود المعنيّة بالصور والأشكال ، كذلكم عمدوا إلى هذه الأمة التي كانت شعلةً من العمل والإقدام ، فجعلوها بالاستسلام واليأس كومةً من رماد .

والقسم الأول من رسالة إقبال نذير الموت لهذا الإسلام غير المنزل ، وبشير الحياة للإسلام القرآني .

* * *

والقسم الثاني من رسالة إقبال احتجاجٌ دائم على هذه الفتن التي تموج بها الحضارة الغربية ، والتي يذهب موجها بشباب الأمة الإسلامية كما يذهب السيل بالغثاء . وضرب الكليم هو إيذان هذه الحضارة بالحرب .

ما حضارة العصر الحاضر ؟ ولماذ يشتدُّ إقبال في معاداتها ؟

لا نعرف جواب هذا السؤال حتى نعلم ما الحضارة الإسلامية .

إنَّ من يتدبر القرآن يتجلَّى له أن الإسلام نظام حياة يسمى ديناً . فقد بيَّن القرآن للحياة الإنسانية مقاصد، وحدَّ حدوداً، وجعل للإنسان الاختيار والاجتهاد غير متعدٍّ هذه الحدود وهذه المقاصد، والحدود لا تتبدل، فهي حقائق أبدية ، وقيم للحياة خالدة . يتبين من القرآن أنَّ للحياة مظاهر مختلفة متغيِّرة ، ولكن لها ينبوعاً واحداً لا يتغير ، وهذا الينبوع أصل هذه الحقائق التي ذكرت آنفاً .

والإيمان بوحدة ينبوع الحياة ، ينبوع الحقائق الأبدية ، يؤدي حتماً إلى هذه النتائج .

(أ) كلُّ إنسانٍ مودعٌ في فطرته ممكنات الحياة ، وغاية الحياة نموُّ هذه الممكنات وتجلِّيها . وهذه الجواهر الفطرية الخفية إذا نضجت وتلألأت تجلَّت ذات الإنسان . وحفظ هذه الذات وخلودها هما غاية سعي الإنسان وجهده .

(ب) والناس آحادٌ في أخوةٍ شاملةٍ عامَّة ، لا تحدها الأوطان ، والأقوام ، واللغات .

(جـ) ثم فلاح النوع الإنسانيِّ في أن يمضي في الحياة على شريعةٍ واحدة ، يُتلقى بالوحي ، وهو اليوم محفوظ بين دفتي القرآن تحت هذه السماء .

في الإسلام نظامٌ للمعايش محكم ، قائم على هذه القواعد المحكمة . يمضي الإنسان به على سنن التقدُّم والترقي ؛ حتى يبلغ في مراحل الكمال سدرة المنتهى .

وإليك خصائص هذا النظام :

(أ) في هذا النظام يستطيع كلُّ فردٍ في الجماعة أن يمثّل في نفسه الصفات الإلهية التي يسمِّيها القرآن « الأسماء الحسنى » . وهي ينبوع القيم الدائمة في الكائنات .

(ب) وتستحكم نفس الإنسان فيستطيع أن يوازن بين هذه الصفات كلها ، فقد وصفت الأسماء بأنها الحسنى . ولا يكون الحسن بغير اعتدال وتناسب .

(ج) وتتجلَّى في الإنسان بصيرة يصحُّ بها حكمه ، ويستقيم رأيه ، فيعلم أيَّ هذه الصفات الإلهية تقابل أيَّ الحادثات الخارجية التي تنتابه .

(د) ثم يبدو في الجماعة ـ التي تؤلفها أفرادٌ من هذا القبيل ـ قدرةٌ على تسخير عالم الطبيعة ، وصلاحيةٌ للانتفاع بهذا التسخير في فلاح الإنسان وسعادته .

(هـ) وبالإيمان المحكم بوحدة الخالق ، ووحدة الكائنات ، ووحدة الأمة

وائتلافها تتوافق الأضداد الظاهرة بين الإنسان والكائنات ، وبين الإنسان والإنسان ، وبين الإنسان ونفسه ، فيزول التنافر والاضطراب عن الجماعة الإنسانية .

(و) ثم يرى كلُّ واحدٍ في هذه الجماعة نفسه مظهراً للصفة الإلهية « رب العالمين » ، فيقوم على الإنسانية بالحق والعدل غير راجٍ أجراً ، ولا عوضاً . فتيسّر لوحدان الجماعة ضروريات الحياة ، وتنمو فيهم القوى الفطرية ، وتذلَّل لهم الوسائل والأسباب أبداً .

* * *

هذه خلاصة المدنية القرآنية في كلماتٍ قليلة . وعلى عكسها المدنية الحاضرة . فهي تناقض هذه الأصول كلَّ المناقضة .

هذه المدنية قائمة على هذه الفلسفة : إنَّ الحياة تنشأ من اجتماع العناصر ، المادية اتفاقاً ، وتفنى بتفرُّق هذه العناصر . والدنيا هي دنيا هذه العناصر المادية التي يتغيَّر فيها كلُّ شيء ، فليس فيها قيم دائمة ، وليس فيها قانون لمكافأة الأعمال . والخير ما يجلب لواحد أو جماعة نفعاً خاصاً (ولو كان في هذا هلاك آحادٍ ، أو جماعاتٍ أخرى) . والشرُّ ما يضرُّ واحداً أو جماعة . وكل أمل هؤلاء الوحدان والجماعات في الحياة أن تجرَّ إلى أنفسها منفعةً . وعمل العقل والعلم أن يهيِّىء الأسباب والوسائل أو الحيل والمكائد لتحصيل هذه المنفعة .

ونتيجة هذه الفلسفة (مدنية العصر الحاضر) في الأفراد : أنَّ في كلِّ ستةٍ من تلك الأفراد فرداً يختلُّ عقله ، فيرسل إلى مستشفى المجانين ، كذلك دلَّ إحصاء أهل الغرب أنفسهم . ونتيجة هذه الفلسفة في الجماعات : أنَّ أمم العالم في شغلٍ بالقتل ، وسفك الدماء ، والتدمير ، أو بالاستعداد للقتل ، والسفك ، والتدمير .

* * *

أنعم إقبال النظر في فلسفة الحياة ، ونظريات السياسة والعمران عند الأمم الغربية ، فتجلَّت له هذه الحقيقة : إنَّ هذه الفلسفة ، وهذا المنهاج في الحياة يجعلان هذه الدنيا جهنم لا محالة .

وإلى هذا كشف له السنن القرآنية حقائق الحياة حتى رأى البروق الكامنة في السُّحب ، والعواصف المضمرة في الرياح .

هذا النظر حفز إقبالاً إلى أن يحذر الغرب ، فيقول للغربيين سنة ١٩٠٥م : « **ستقتل حضارتكم نفسها بخنجرها . لا يثبت العشُّ على غصنٍ رطيبٍ ضعيفٍ مضطرب** » .

ولم يأل إقبال جهداً ، منذ ذلك الحين إلى آخر لمحات حياته ، في أن يحذِّر الناس عامَّةً والأمم الإسلامية خاصَّةً من هذه الحضارة الشيطانية ، ويخوفهم عواقبها .

* * *

وهذه طائفة من النذر ، اسمها « ضرب كليم » يكتبها إقبال بعد أن يحطم كلَّ أصنام العصر الحاضر ، ولكنه لا يكتفي بأن يبطل سحر الفرعونية ، والهامانية ، والقارونية[1] ، بل يهدي هذه الأمة في نور القرآن إلى الأودية المباركة من سينا ، وفاران ، حيث تفيض البركة من ينابيع الأرض ، وينزل الخير من السماء .

هذا ما يتعلق بـ « ضرب كليم » . ويجدر بنا الآن أن نبرز نقطة من الأهمية بمكان في دراسة إقبال بوجهٍ عام ، وهي : أنَّ شعر إقبال حافل بكلماتٍ معينة ، عربيةٍ وفارسيةٍ ، لم يقصد إلى مدلولها اللغوي ، إنما استخدمها كاصطلاحات من وضعه هو . إذاً لا يتأتَّى لأحدٍ أن يتبين ما يرمي إليه الشاعر ما لم يكن ملمّاً بحدود تلك المصطلحات الخاصَّة ، مثل « علم وعشق ، ذكر وفكر ، خبر

---

(١) يعني : صفات فرعون ، وهامان ، وقارون .

ونظر ، سوز وساز ، أو درويش وقلندر ومردحُر » وأخرى غيرها . ومع أنَّ كلَّ واحدة من تلك الاصطلاحات لها أهميتها إلا أن من بينها اصطلاحاً هو بمثابة المحور لفكر إقبال ، المحور الذي حوله يدور شعره كله ، ألا وهو « خودي = الذاتية » . لقد كان هذا اللفظ يستعمل عندنا (بالأردوية) من قبل بمعنى الكبرياء والغرور (الأنانية) لكن إقبالاً أفاض عليه معنى خاصاً مغايراً للمعنى القديم الذي لم يلبث أن اختفى في أيامنا هذه أمام مزاحمه الجديد .

فماذا يعني إقبال بـ « خودي » ؟ .

إنَّ الإجابة عن هذا السؤال تأبى إلا البسط والتفصيل ، لأنَّ فلسفة إقبال هي فلسفة « خودي » سواء بسواء ، بحيث لا يمكن الإحاطة بمغزى هذا الاصطلاح بدون استعراض فلسفته برمَّتها . وليس هذا مقام التفصيل والإطناب ، إلا أنه نظراً إلى تكرار وجود هذا الاصطلاح في « ضرب الكليم » يتحتَّم علينا أن نعرِّفه تعريفاً خاطفاً بكلمةٍ موجزةٍ قدر الإمكان :

هل شخصية الإنسان ووجوده الفردي ، أو بعبارة أخرى « أنا » حقيقة مستقلة ، أم هي من نسج الخيال فقط ؟ هذا هو السؤال الذي قلَّما أغفل مفكرو أية أمة من أمم العالم الإجابةَ عنه . فذهب أفلاطون ومن ورائه حكماء إيران والهند ، إلى أن الكون لا يتمتع إلَّا بالوجود الكلِّي ، وأنَّ ذات الإنسان (شخصيته أو « أنا ») وَهْم وخدْعة لا غير . ثم إنَّ هذه الخدعة إنما تستمد القوة من العمل الذي هو بدوره ينشأ من الرغبة . فالطريق إلى التخلص من هذه الخدعة هو أن يتدرَّج الإنسان من ترك الرغبة إلى ترك العمل ، لكي يتلاشى حباب ذات الإنسان في بحر الوجود الكلِّي . وفناء الذات هذا هو النجاة والغاية من الحياة . فهذه هي فلسفة الحياة التي ظهرت وانتشرت بيننا باسم نظرية وحدة الوجود والتي حوّلت المسلمين من أمةٍ دائبةٍ في العمل إلى جمادٍ لا حراك به .

وقد عُني إقبال بتفنيد فلسفة الحياة هذه ، ومعارضتها بضدها أعني فلسفة « خودي » ، وتتلخص هذه الفلسفة الأخيرة في أن الوجود ليس كلياً يشمل

الكون من حيث المجموع ، بل هو فردي يخصُّ جميع الموجودات كُلاً على حدة ، حتى أنَّ الله أيضاً فرد ، وإن كان متميزاً عن سائر الكون في طبيعة وجوده الفردي الخاص . فـ « خودي » عبارة عن أسمى صورةٍ للحياة الفردية التي بها تتشكَّل شخصية الإنسان ، ووجوده المستقل . وعلى هذا فالغاية من الحياة الإنسانية هي إثبات « خودي » لا سلب الذات . ويعتقد إقبال : أنَّ الإنسان كلما تشبه بذلك الفرد الكامل العزيز الوجود (الذي يطلق عليه « أنا » المطلق أو الله) أصبح هو نفسه منفرداً عزيز الوجود ، وذلك بما يسمى بتقوية « خودي » وإحكامها . و« التشبه بالله » إنما يعني استمرار الإنسان في التحلِّي بصفات الله إلى أن يتم بذلك جذب « أنا المطلق » في نفسه (نفس الإنسان) . والمحك الذي يكشف عن قوة « خودي » وضعفها هو مدى تغلب الإنسان على الموانع التي تعترض سبيله في الحياة ، ولا يخفى أنَّ أعظم تلك الموانع هي المادة ، ولكن لا يفهم من هذا أنَّ المادة شرٌّ يستوجب الابتعاد والنفور منه ، فإنها ليست شراً ، إنما هي وسيلة لإيقاظ الهمم ، وإبراز قوى الإنسان من مكامنها .

واحتناك الموانع والعوائق ، وتغلب الإنسان عليها يصل بـ « خودي » إلى أن تستطيع الصمود حتى لصدمة الموت ـ الأمر الذي ييسر لها الحصول على الحياة الخالدة . فكلُّ عملٍ يؤدي إلى تقوية « خودي » خير ، كما أنَّ كلَّ عمل يؤدي إلى إضعافها شر .

ويبين إقبال المراحل المختلفة لارتقاء « خودي » فيقول : إنَّ المرحلة الأولى هي (خلق المقاصد) أو (توليد الرغبات) ، فإنَّ الرغبات والأماني هي عين الحياة وأصل القوة من حيث إنَّها تحرك وتدفع إلى العمل . والمرحلة الثانية لخلق المقاصد هي مرحلة الجهاد المتواصل لتحقيق تلك المقاصد ، والحماس للحصول على المقاصد والسبق إلى الغايات هو ما يسمَّى بـ « العشق » في عرف إقبال . ثم إنَّ هناك ثلاثة شروط للنجاح في هذا الجهد : أولها الطاعة ، أعني : الانقياد التام لأوامر الله ، وذلك يستلزم إنشاء مجتمعٍ على النظام الذي جاء به

القرآن . وينتج من الطاعة ضبطُ النفس ؛ الذي هو الشرط الثاني للنجاح . وليس المراد بضبط النفس القضاء أو الضغط على الشهوات ، بل مجرد « كظمها » أي : تغيير مجراها ، وتحويل وجهتها ، بحيث يتمُّ التوازن بينها ، ذلك التوازن الذي يتجلَّى بأكمل وجهٍ في الذات الإلهية الجامعة لصفاتٍ متضادةٍ متعادلةٍ للغاية .

وإذا تمَّ تطهير الفكر والعمل ، وتهذيب النفس على النحو الذي تقدَّم ، وصل الإنسان إلى المقام الذي يسمِّيه إقبال « نيابة الله » . وذلك هو الشرط الثالث . وإنما يعني إقبال بـ « نيابة الله » القوة التنفيذية التي تتولى إجراء حدود الله (أحكام القرآن) في العالم . (ولا تعني نيابة الله الحلول محلَّ الله ؛ لأن ذلك يستلزم خلوَّ المحل ، وانعدام شاغله أولاً) .

هذا المقام هو « مقام المؤمن » والمقام الذي يؤكد إقبال أنه يمثل آخر مدى قوة « خودي » واستحكامه . إذا انتهى الإنسان إلى هذا المقام غلب هو على الدنيا ، ولم تغلب الدنيا عليه ـ الحال التي تسمَّى في عرف إقبال « الفقر (حال الدرويش أو القلندر) » وهي عبارة عن تسخير جميع الكون ، ثم الاستغناء عنه بحيث يكون الإنسان مظهراً لتلك الصفة من صفات الله التي ذكرها بقوله « الصمد » و« غني عن العالمين » . والجماعة التي تنتظم أفراداً هذه حالهم هي الأمة المسلمة . وأقصى ما تهدف إليه رسالة إقبال هو البعث الجديد لهذه الأمة التي قيل عنها :

ميـــان امتـــان والامقـــام اســـت كـه آن امـت دوكيتـي را امـام اسـت
نيـــاســـا يـــد زكـــار آفـــرينـــش كه خواب وخستكي بروي حرام است

(إنها تعلو فوق الأمم ؛ لأنَّها أمةٌ نيطت بها الإمامة في الدنيا والآخرة فهي لا تني عن مواصلة أمور الخلق ؛ لأنَّ النوم والتعب محرمان عليها) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] وقيل عنها أيضاً :

« بـاغـان عـنـدليبـي خـوش صفيـري بـــراغـــان جـــره بـــازي زودكبـــري
أميـــر أو بسلطـــانـــي فقيـــري فقيـــر أو بـــه درويـــش أميـــري

(إنها في البساتين عندليبٌ حسن التغريد ، وفي الصحارى باز خفيف سريع الانقضاض ، الأمير فيها فقير على الرغم من كونه سلطاناً ، كما أنَّ الفقير فيها أمير على الرغم من كونه درويشاً)[1] .

﴿ لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

(١) قام بترجمة هذه الكلمات من الأردوية الأستاذ الدكتور محمد يوسف (المدرس بكلية الآداب بجامعة القاهرة) .

فطْـــرةُ الحُـــرِّ لا تُطيـــق مُقـــامـــاً فـــائلـــف السيـــرَ دائبـــاً كـــالنسيـــم
ألـفُ عَيـنٍ تشـقُّ صخـرَك فـاضـربْ بَعْدَ غَوْصٍ في (الذَّات) ضربَ الكليم

إلى القارئين

إذا لـم تُصـب فـي الحيـاة النظـرْ ... فليـس زجـاجُـك كُـفءَ الحجـر[1]
كِفـاحٌ شـديـدٌ ، وضـربٌ سـديـد ... فلا ترجُ في الحرب عَزفَ الوتر
مَعيـنُ الحيـاة دمـاءُ القلـوب ... ولحـنُ الـدِّمـا لا الميـاهِ الفِطَـر[2]

* * *

---

(١) أنت بالنظر الصائب صلبٌ تطيق الصدام في الحياة ، وإن لم يصب نظرك كنت كالزجاج لا تقوى على الصدام .

(٢) لحن المياه يستخرج من أوان تصف ، ويوضع فيها الماء مقادير مختلفة على نسب محددة ، ويضرب عليها . وهذه تسمى « جل ترنك » أي : لحن الماء . فقال الشاعر : إنَّ الفطرة لحن دمٍ ، لا لحن ماء . يعني : أنَّ أنغامها تنبعث من دماء الناس ، لا من المياه .

تمهيد

(١)

يَقْظَـة « الـذات » لا أراهـا بـدَيْـرٍ ... لا ولا تُجتلَـى لـدى المِحـرابِ
إنَّ روحَ الشُّعـوب فـي الشـرق غـافٍ ... من سموم الترياق ، رهنُ غياب[١]
إنْ تَضِق بالجهاد في الأرض ذَرعاً ... فحـرامٌ مسـراكَ فـوقَ السَّحـاب[٢]
ليـس مـن خيفـة الممـات نجـاةٌ ... إن تَر (الذات) هيكلاً من تراب[٣]
ليـس يُخفـي صـروفَه الـدهرُ لكـنْ ... لـك قلـبٌ ونـاظـرٌ فـي حجـاب
قـد مُنِحـتُ الهشيـمَ فـي آسيـا إذ ... أنَّ نـاري حـديـدةٌ فـي التهـاب[٤]

(٢)

ذَنـبُ إقبـالِ البيـانُ وإن كـان ... شبيـهَ الـزَّمـان نـزرَ الـوصـال[٥]
هـاج أنغـامُـه عكـوفـاً علـى الخشخـاش مَـوْتَـى ، إلـى طـلابِ المعـالـي
فمهيـضُ الجنـاحِ ألـفُ دارٍ ... قـد رَنـا اليـوم للفضـاء العـالـي[٦]
فعـداهُ التغـريـدُ فـي الأسحـار ... وحنيـنٌ ومُتعـةُ الأبصـار[٧]

---

(١) الترياق : الأفيون .
(٢) يقول : إن لم يستطع الإنسان المجاهدة على هذه الأرض ، فاشتغاله بالفلك ، وما وراءه حرام .
(٣) يرى إقبال أنَّ الحياة الخالدة بقوة الذات . فمن حسب ذاته تراباً كالجسم لم يخلص من خشية الموت .
(٤) ناري شديدة الالتهاب ، فأنا قادرٌ على إحراق هشيم آسيا ؛ أي أممها التي هي كالهشيم ؛ أي إزالة مفاسدها وإعدادها للحياة .
(٥) إقبال قليل المخالطة للناس ، ولكن بيانه سائر فيهم .
(٦) إقبال دعا إلى طلاب المعالي العاكفين على الأفيون حتى طمحت الطير الداجنة كسيرة الجناح إلى عنان السماء لتطير .
(٧) دعاء على إقبال بأن يحرم مما يحب من التغريد . . إلخ جزاء إيقاظه الغافلين .

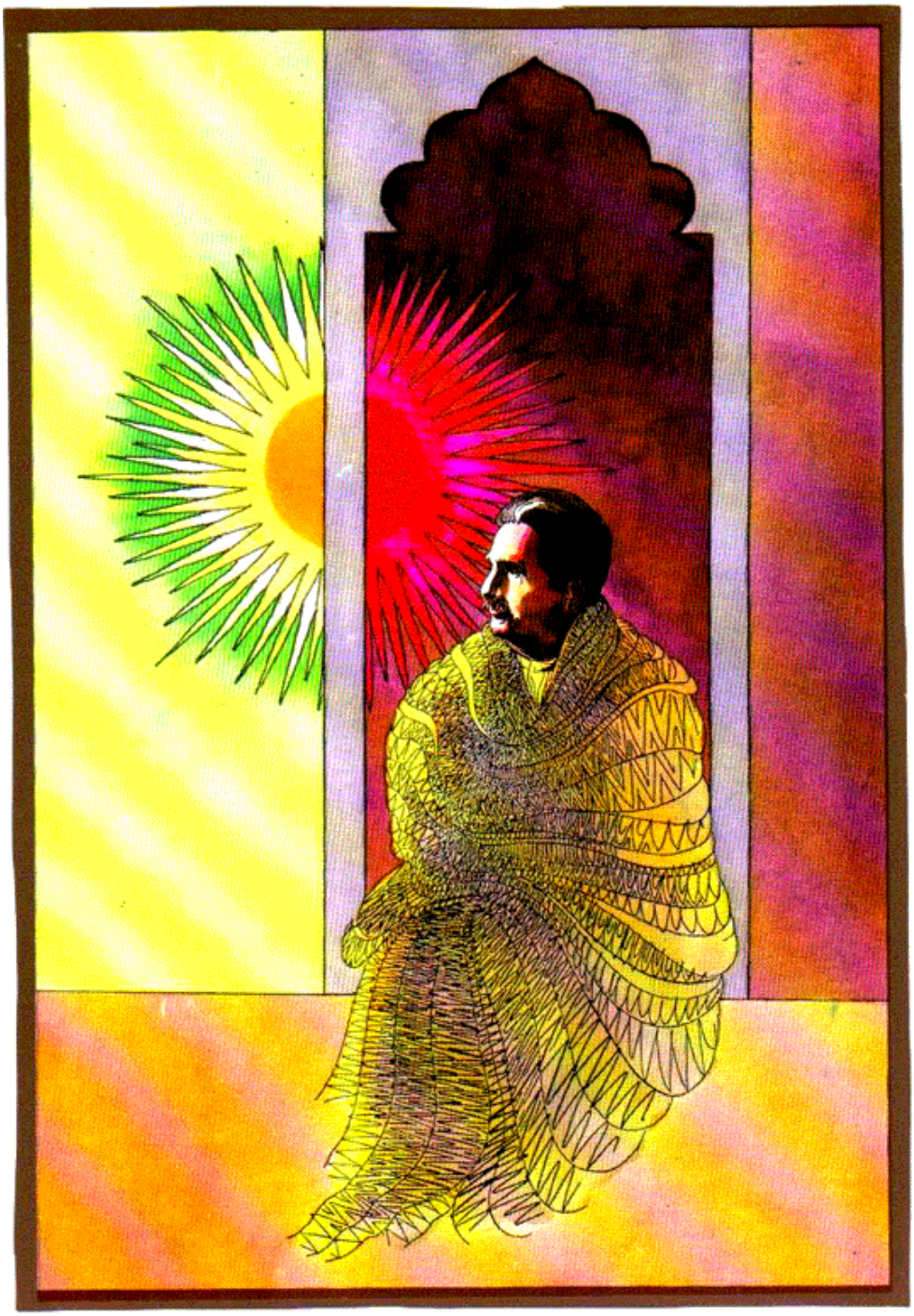

آسماں ہوگا سحر کے نور سے آئینہ پوش
اور ظلمت رات کی سیماب پا ہو جائے گی

القسم الأول

الإسلام والمُسلمون

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الصبح

إنَّا لنجهلُ مطلعَ الصُّبح الذي ... يُدعى بيومٍ أو غدٍ في الأزمُنِ
لكنَّما الصبحُ الذي ارتجَّت له ... ظُلَمُ العوالم ، من أذانِ المؤمنِ

* * *

لا إلٰه إلا الله[1]

مُسْتسرٌّ في الذات معنىً بعيدٌ ... سرُّه لا إلٰه إلا اللهُ
سيفُ الذاتِ قاطعٌ غيرُ نابٍ ... شَحذُهُ لا إلٰهَ إلا الله
عصرنا يبتغي خليلاً حَطوماً ... وُثْنَه . لا إلٰه إلا الله[2]
إنَّ دنياك مَوثن لا تصدِّق ... زوره . لا إلٰه إلا الله
في متاع الغرور تسعى وتبغي ... ربحه ! لا إلٰه إلا الله
يا أسير الخسار والربح يَنسى ... نفسه ! لا إلٰه إلا الله
مالُ دنياك والبنون خداعٌ ... كلُّه . لا إلٰه إلا الله
هي أصنامُ واهمٍ قد براها ... وهمُه . لا إلٰه إلا الله
حبسَ العقلَ في مكانٍ ووقتٍ ... كفرُه . لا إلٰه إلا الله
لا زمانٌ ولا مكانٌ فحطّم ... غلَّه . لا إلٰه إلا الله

* * *

---

(١) بنى الشاعر هذه الأبيات على كلمة التوحيد بلفظها العربي فجهدت في الملاءمة بينها وبين الوزن وجعلتها ردفاً وبنيت الروي قبلها على الهاء غير ملتزم حرفاً آخر .

(٢) الوُثْنُ : جمع وثن ، والموثن : مكان الأوثان .

الاستسلام للقدر[1]

من القرآن قد تركوا المساعي ... وبالقرآن قد ملكوا الثُّريَّا
إلى (التقدير) ردُّوا كلَّ سَعْيٍ ... وكان زَماعُهم قَدراً خفيَّا
تبدَّلت الضمائر في إسارٍ ... فما كرهوه صارَ لهم رَضِيَّا

* * *

المعراج[2]

وذَرَّةٍ طار فيها الشَّوقُ صاعدةً ... تُغيرُ في عَرَصات الشَّمسِ والقمرِ
يا رِفْقةَ المَرجِ ! تلقى الصقرَ مُقدمةً ... دُرّاجةٌ تملأ الأنفاسَ من شرَر
المسلمُ السَّهم ، والأفلاكُ غايتُه ... سرائرُ الرُّوح في المعراج فادَّكر[3]
جهلتَ ﴿ والنجم ﴾ أسراراً فلا عجبٌ ... ما زال مَدُّك محتاجاً إلى القمر[4]

* * *

---

(١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ المسلمين احتجوا بالقرآن في القصور عن السعي ، ومن هذا القرآن نفسه ملك المسلمون الآفاق . وقد ركنوا اليوم إلى القدر وكان عزمهم من قبل قدراً . والحقُّ أنَّ العبودية بدلت النفوس ، فرأوا حسناً ما كان عندهم قبيحاً .

(٢) الذرة التي يملؤها الشوق تعلو على الشمس والقمر ، والدُّرَّاجة إذا ملأ صدرها الحماس قاتلت الصقر ، فإنما القوة الحق قوة الروح ، لا شيء يستعصي عليها .

(٣) يريد أن في المعراج سرُّ الروح . وهو رمز إلى أنَّ المسلم سهمٌ هدفه الفلك .

(٤) جهلت أسرار الآيات في أول سورة النجم ، التي يذكر فيها الوحي ، وتقريب الرسول إلى ربه . وليس جهلك عجيباً ، فإن نفسك لم تكمل ، ولا تزال خاضعة لما يؤثر فيها محتاجة إليه ، كما يحتاج البحر إلى القمر في مدِّه .

إلى سيدٍ مصابٍ بالفلسفة

لـو لـم تُـؤَلِّ « ذاتَـك » النِّسيـانـا ... لمْ تَحمِلَنْ زُنَّار (بَرْجَسَانا)[1]

أصـداف (هيكـلٍ) مـن الخـوالـي ... طِلْسَمـــهُ جميعـــه خيـــالـــي

فكيـــف صـــاحِ تُحكَـــمُ الحيـــاةُ ... وكيف تجتازُ الزمانَ (الذاتُ) ؟

وطَلَـــبُ الإنســـان للثبـــات ... وقصـــدُه دستـــور ذي الحيـــاة؟

يُحـوِّل الـدُّجـى إلـى الإشـراق ... أذانُ مـــؤمـــنٍ نِـــدا الآفـــاق

وإنَّنـي فـي الأصـل سُـوَمناتـي ... إلـى مَنـاةَ سَلَفـي واللاتِ[2]

وأنـــت مـــن أولاد هـــاشمـــيٍّ ... وطينتـي مـن نسْـلِ بَـرْهَمـيٍّ

فـــي عَصَبـــي فلسفـــةُ الأشيـــاء ... قـد مُـزِجَـتْ بطينتـي ومـائـي

أحـــاط إقبـــالٌ بهـــا تفصيـــلا ... وإن يكـــن عـــرفـــانُـــه قليـــلا

عـــاقبـــةُ العقـــلِ إلـــى شَتـــاتِ ... فلسفـــةٌ بُعـــدٌ مـــن الحيـــاة

ونَغْمـــةُ الأفكـــار دونَ صَـــوت ... للـــذَّة الأعمـــال حـــادي المـــوت

الـــدِّيـــنُ فـي حيـاتنـا تقـويـم ... الـــدِّيـــن أحمـــدٌ وإبـــراهيـــمُ

(قلبَك فاربط بالهُدَى المحمديِّ ... « أبـا علـيٌّ » اتـركَـنْ يـابـن علـيّ

إنْ تـــكُ بـــالطـــريـــق غيـــرَ داري ... فـالقـرشـيُّ اتبَعـه لا البخـاري)[3]

* * *

---

(١) برجسون : فيلسوف فرنسوي ، ويلفظ اسمه في الهند بركسان ، وهيكل : فيلسوف ألماني .

(٢) سومنات : معبد كبير في الهند هدمه السلطان محمود الغزنوي حينما فتح الهند ، ويشيده الهنادك اليوم . واللات ، ومناة من أصنام العرب .

(٣) هذان البيتان من شعر الخاقاني في « تحفة العراقين » وأبو علي والبخاري في البيتين : ابن سينا .

الأرض والسماء

صاحِ عَلَّ الذي رأيْتَ ربيعاً ... هو في أعيُن خريفُ الزَّمان
سالكَ النَّهج ! كلَّ حينٍ شُؤونٌ ... لا تفكِّر في الربح والخسران
رُبَّ ما خِلتَه بدنياك أوْجاً ... هو أرض لعالَمٍ غَاب ثانِ

***

اضمحلال المسلمين

إنَّ كان ذا الذهبُ الذي ... يَقْضي الحوائجَ في الدُّنى
فالفقرُ صاحِ مُيَسَّرٌ ... ما لا يُيَسِّرُه الغِنَى
شُبّانُ قومي لو تحلَّوْا ... بالشَّجاعة ديدَنا
لم تُلْفَ صَعْلكتي أقلَّ ... من الملوك تَصَوُّنا
الأمر ليس كما زعمتَ ... وقد وصفتَ المؤمنا
فزعمتَ أنَّ طماحه ... من قِلَّة المال انثنى
إنْ كان في الدُّنيا بدا ... لي جوهرٌ فيه سَنا
فَمِنَ التَصَعْلُكِ قد بدا ... لا بالخزائنِ والقُنَى

***

العلم والعشق

قال لي العلمُ غُروراً : ... إنَّما العِشْقُ جنونْ
قال لي العِشْقُ مجيباً : ... إنَّما العلمُ ظَنينْ
لا تكنْ سوسَ كتابٍ ... يا أسيراً للظنون
فمن العِشْق شُهودٌ ... ومن العِلْم حجابْ
مِنْ لهيب العِشْقِ ثارتْ ... ثورةٌ في الكائناتْ

وشهـــودُ (الـــذَّاتِ) للعِشْـــق ، وللعلـــم الصِّفـــات
ومِـــنَ العِشْـــق ثبـــاتٌ وحيـــاةٌ وممـــات
عِلْمنـــا سُـــؤْلٌ جلـــيٌّ عِشقُنـــا خـــافي الجـــوابْ
معجـــزاتُ العِشْـــق مُلـــكٌ زانَـــه فقـــرٌ ودِيـــن
وعبيـــدُ العِشْـــق أدنـــا هـــم لـــه عـــرشٌ مكيـــن
ومـــن العشْـــق زمـــانٌ ومكـــانٌ ومكيـــن[1]
إنَّمـــا العشـــق يقيـــنٌ وبـــه يفتـــحُ بـــابْ
أُلْفَـــةُ المنـــزل فـــي شـــرعٍ مـــن الحُـــبِّ حـــرام
خطَـــرُ البحـــر حـــلالٌ راحـــةُ السِّـــرْبِ حـــرامُ
خفقـــةُ البـــرق حـــلالٌ وَفْـــرة الحَـــبِّ حـــرام[2]
علمنـــا نَسْـــلُ كتـــابِ عِشْقُنـــا أمُّ الكتـــابْ

***

اجتهاد

حكمـةُ الـدِّيـن كمـا قـد زعمـوا عُلِّمَتْ في الهند من أيِّ طريقِ ؟
مـا بهـا لـذةُ سعـيٍ دائـبِ لا ولا فيهـا مـن الفكـر العميـقِ
أيـن منهـم جُـرأةُ العقـل لـدى مَحْفـلٍ يهفـو إلـى الفكـر مَشـوق
آه للتقليـد والأسـر بمـا ألِفـوه وزوالِ التحقيـق

---

(١) يستعمل كثيراً في الآداب الإسلامية غير العربية كلمة مكين مع مكان . ويراد بها من يحل في المكان .

(٢) الحب لا يرضى القرار ففي شرعه ألفة المنزل حرام ، وحلال ركوب الخطر في البحر ، وحرام الدعة على البر . وخفقة البرق التي تحرق البيدر حلال ، ووفرة الحب ؛ أي : الجمع والادخار وحب السلامة حرام . وذكر البرق والبيدر شائع في الشعر الفارسي والأردي .

بـــدَّلـــوا القـــرآنَ لا أنفُسَهـــم كـم فقيـهٍ مُبعَـدٍ مـن تـوفيـقِ[1]
وكفـــى القـــرآنَ نقصـــاً أنَّـــه ما هدى المؤمنَ منهاجَ الرقيق[2]

***

شكر وشكوى

لـك الحمـد إنِّـيَ عبـدٌ جهـولٌ ولكـنْ وُصِلْـتُ بسـرِّ الغيـوبْ
مَنَحْـتُ القلـوبَ هُيـامـاً جـديـداً أثـرتُ البعيـدَ بـه والقـريـب
ومن حرِّ شَدْوي يُرى في الخريف طَـروبـاً بصحبتـي العنـدليـب
ولكـــن خُلِقْـــتُ بـــأرضٍ بهـــا نفـــوسُ العبيـــد بـــرِقٍّ تطيـــب

***

الذكر والفكر

ذانِ للســـالـــك الطَّمـــوح مقـــام نَـزَلَـتْ فيـه « عَلَّـمَ الأسْمَـاءَ »[3]
ومقـــام التفكيـــر قـــولُ ابـــنِ سينـــا ومقـامُ العطَّـار بـالـذِّكـر ضَـاء[4]
ولـــذكـــرِ « سبحـــانَ ربّـــيَ » والفكـــرُ يقيـــسُ الـــزمـــانَ والأرجـــاء[5]

***

---

(١) كرر إقبال هذا المعنى في شعره ، يقول : إن النفوس قد ضعفت ، فأولت القرآن تأويلاً يلائم ضعفها إشفاقاً من تكاليفه .

(٢) يعني أنَّ الذين بدلوا القرآن المذكورين في البيت السابق لم يجدوا في القرآن طريقاً إلى العبودية التي سكنوا إليها ، فحسبوا القرآن ناقصاً .

(٣) الآية : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] .

(٤) في الأصل : العطار والرومي ؛ أي : فريد الدين العطار ، وجلال الدين الرومي ، وهما من كبار شعراء الصوفية .

(٥) الذكر يتصل بالحقيقة الإلهية ، والفكر في شغلٍ بقياس الزمان والمكان .

شيخ الحرم

يَخْفَى عليكَ مقامُ آدمَ في الورى ... فالنفسُ ما نالَ الإلٰه وصَالُها[1]
ما في أذانك من صباحي دعوةٌ ... أو في الصلاة جمالُها وجلالُها

***

القدر[2]

ربما يبلغُ اللئيمُ مُناه ... وينالُ الكريمَ ضيمُ الزمانِ
علَّ في منطقِ القضاء خفاءً ... ويُرَى دون منطقٍ في العيانِ
عَلِمَ النَّاسُ ذي الحقيقةَ طُرّاً ... وجلاها التاريخُ كلَّ أوانِ
نحو مسعى الأقوام يرنو القضاءُ ... نظرةٌ كالحُسام فيها مَضاءُ

***

التوحيد

قوَّةٌ كان في الحياةِ على الأرض ... فصارَ التَّوحيدُ علمَ الكلام
رَدَّهُ في الفعال غيرَ مضيءٍ ... جهلُنا اليوم ما لنا من مقام
قائدَ الجيش ! قد رأيتُ غُموداً ... مِن « هُو اللهُ » ما بها من حُسام[3]

---

(١) يخفى عليك مقام الإنسان ، ولهذا أخلدت إلى الأرض فلم تصل إلى الله .

(٢) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ القضاء يبدو غير تابع للمنطق ، ولعل له منطقاً خفياً ، وعلى كل حال نرى حقيقةً لا جدال فيها ، هي أنَّ عين القضاء تنظر إلى مساعي الأمم ، فتقضي فيها على قدر مساعيها .

(٣) رأيت غموداً ليس فيها حسام من التوحيد ، وفي الأصل : من « قل هو الله » أي قل هو الله أحد .

ما درى الشيخُ أنَّ توحيدَ فكرٍ دون فِعلٍ ، يُعدُّ لَغْوَ كلام[1]
يا إماماً لركعةٍ كيف تدري في الوَرَى ما إمامةُ الأقوام ؟

* * *

العلمُ والدِّين[2]

العلم يخلق إبراهيم موئنَه إذا تراه نديمَ القلبِ والنَّظرِ
هذي الحياةُ وهذا الكونُ ، ما بُدِلا ما مُحدَثٌ وقديمٌ قولُ ذي بصَر
ما يُحسنُ المرجُ تربيبَ الزُّهور إذا لم تَشْرِك النَّسماتُ الطَّلَّ في الزَّهَر
العلم إن لم يُضِف نَجْوى الكليم إلى رأي الحكيم فما للعلم من قَدَر

* * *

المسلمُ الهندي

قال البَرَهْمَنُ : خائنٌ أوطانه والإنكليزُ تقول : هذا مجتدي
ونُبُوَّةُ البَنْجاب قالت : كافر مستمسكٌ بقديمه لا يهتدي[3]
أيَّانَ صوتُ الحَقِّ يعلو هاهنا ؟ ويلٌ لقلبي في الصِّراع المُجْهد[4]

* * *

---

(١) لا يفيد توحيد الأفكار دون توحيد الأفعال ، فإنَّ ثمرة وحدة الفكر وحدة العمل .

(٢) العلم وحده عاجز مُضل حتى يتَّصل به القلب ويصاحبه الإيمان ، ويهديه العشق . فإن كان كذلك خلق هو إبراهيمه ليحطم أوثانه التي يصنعها . هذا شأن الحياة ، لا قديم فيها ولا حديث ، والعلم والبصيرة أو العقل والقلب كالطلِّ والنسيم لا بدَّ من اشتراكهما في تربية الزهر .

(٣) نبوة البنجاب يقصد بها من ادعى النبوة (هو مرزا غلام أحمد القادياني) .

(٤) هذا الشطر مضمن في الشعر ، وقد جاء في الأصل بلفظٍ فارسي .

على ذكر الإذن بحمل السيف[1]

أيها المسلمُ تَدْري اليومَ ما ... قيمةُ الفولاذ والعَضْب الذكَر
هو مصراعٌ من البيت الذي ... مضمرٌ فيه من التَّوحيدِ سِرّ
وأرى مصراعه الثانيَ في ... سيفِ فَقْرٍ تحتويه كفُّ حُرّ
أنتَ يا مسلمُ - إن تظفر به - ... خالدٌ أو حيدرٌ يوم المَكرّ[2]

***

الجهاد[3]

الشيخُ أفتَى أنَّه عصرُ القلم ... ما السيفُ فيه حاكمٌ بين الأممْ
أما دَرى الشيخُ بأنَّ وعظَه ... في مسجدٍ قد صار من لَغْوِ الكلِم ؟
فما ترى السِّلاحَ كفُّ مسلمِ ... بل قلبُه من لذَّةِ الموت حُرِم
مَنْ قلبُه يهابُ مَوْتَ كافرِ ... فكيف ميتةَ الشَّهيدِ يَغْتنم[4] ؟
فعلِّمَنْ ترك الجهادِ طاغياً ... مِنْ كَفِّهِ يسيلُ في العالم دَم
أما ترى الغربَ بدا مُدَجَّجاً ... ليحفظَ الباطلَ في عِزٍّ عَمَمْ ؟
يا مُفتياً على الكنيسِ مُشْفقاً ... قد حارَ في أحكامِه أولو الفَهَم
الحربُ في المشرق شرٌّ داهِمٌ ... والحربُ في المغرب شرٌّ لا جَرَم

---

(١) أذن الإنكليز للناس بحمل السيوف بعد أن حَرَّم حمل السلاح كله ، فنظم إقبال هذه الأبيات .

(٢) يريد خالد بن الوليد ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما .

(٣) قامت طائفة في الهند تنكر الجهاد ، تقول : إن هذا عصر الدعوة بالقلم لا القتال بالسيف ، وتدعو المسلمين إلى السلم ، فيأخذ عليهم إقبال أنهم يدعون المسلمين ولا سلاح في أيديهم ويتركون الأمم المدججة في السلاح التي تشن الحرب بين الحين والحين .

(٤) يريد بموت كافر : الموت في غير جهاد .

إن يَبْتَغِ الحقَّ فكيف حاسب المسـ ـلم لا الفِرِنْجَ ذلك الحَكَم ؟

* * *

القوة والدين

كم أصاب الإنسانَ في هذه الأر ضِ مِنَ إسْكَنْدَرٍ ومن جَنكيزِ
ويقول التاريخُ في كلِّ عصر : خَطَرٌ فَرْطُ قُوَّةٍ لعزيز
هي سيلٌ غُثَاؤه الفَنُّ والعِلمُ وما أثَّلَ الورى من كنوز
وهي سُمٌّ بغير دينٍ . وبالدِّين دَواءٌ لكلِّ سُمٍّ نَجيز

* * *

الفقر (١)

الفقر يمضي بلا سلاحٍ في حَوْمةِ الحَرب كالرُّجوم

---

(١) يشيد محمد إقبال بالفقر في مواضع كثيرة من شعره في هذا الديوان وفي غيره ، ويعدُّه مفتاح كل خير والوسيلة إلى كلِّ سؤدد ، والمقتحم كل عقبة ، ومن الأبيات التي ذكر فيها الفقر في هذا الديوان .

في القطعة : « على ذكر الإذن بحمل السيف » :

أيها المسلم تدري اليوم ما قيمة الفولاذ والعضبِ الذَّكر
هو مِصراع من البيت الذي مضمرٌ فيه من التَّوحيد سرّ
وأرى مصرَاعه الثاني في سيف فقر تحتويه كفُّ حرّ

وقوله في القطعة « الفقر والملكية » :

الفقر يمضي بلا سلاحٍ في حومة الحرب كالرُّجوم

وقوله في قطعة « السُّلطان » :

تعلَّم فألف مقام وشان لفقر بدا فيه روحُ القران

وقوله في قطعة « الإمامة » :

يُمرُّ عليك من فقر مِسَنّاً فيطبع منك سيفاً للمنايا =

وكلُّ ضربٍ لـه سديدٌ ... إنْ ثار من قلبه السَّليمِ
حَماسُهُ قَصَّ كلَّ عصرٍ ... قِصَّةَ فرعونَ والكليمِ
يا غَيرةَ الفقر أنجدينا ... واهدي إلى نَهجِك القويمِ
عبادةُ الغرب جمعُ مال ... تَنْخَرُ في رُوحه السقيم

= وقوله في القطعة « نكتة التوحيد » :

أيُّ ملك مقام فقر ، ولكن ... تؤثّر الذلّ مذعناً ما احتيالي

وقوله في القطعة التي أولها « متاعك في الحياة فنون علم » :

وما إن ذلَّ قوم قد أعدُّوا ... حماس العِشْق والفقرِ الغيورُ

ويتبين للقارىء من التأمّل في هذه الأبيات أنَّ الفقر في لغة إقبال ليس عدم المال أو قلته ، ولا هو حاجة إلى ما يعيش به الإنسان ويعتزُّ به من متاع الدنيا . فما يعني إقبال حين يذكر الفقر ويُشيد به ويُبالغ في إكباره ؟ الذي يُدركه القارىء من كلام الشاعر : أن الفقر الّذي يعنيه الشاعر هو خلاص النفس من قيد التملُّك أو الطمع ، ومضيها عاملة مقدمة لا يطغيها وجدان ولا يذلها حرمان . وربما يملك الفقير قناطير من الذهب وربّما يكون ملكاً مسلَّطاً لا يُعمر سلطانه مال أو متاع .

وليس هذا المعنى بعيداً عمّا فسَّر به بعض الصُّوفية الفقر .

في « رسالة القشيري » :

سُئل يحيى بن معاذ عن الفقر ، فقال :

« حقيقته ألا يستغني إلا بالله » .

وقال الشبلي :

« أدنى علامات الفقر أن لو كانت الدنيا بأسرها لأحد فأنفقها في يوم ثم خطر له أن لو أمسك منها قوت يوم ما صَدَقَ في فقره » .

وفي الرسالة أيضاً :

« وقيل : صحة الفقر ألا يستغني الفقير في فقره بشيء إلا بمن إليه فقره » .

وفي كتاب « عوارف المعارف » للسهروردي :

وقال الكتاني : « إذا صحَّ الافتقار إلى الله تعالى صحَّ الغنى بالله تعالى ، لأنهما حالان لا يتمّ أحدهما إلا بالآخر » .

فترى أنَّ الفقر في هذا الكلام ليس عدم الملك وفوات المال ؛ ولكن ألا يرتبط الإنسان بما أدرك أو بما فَاتَ ، أعني أن لا تكون الدُّنيا في قلبه وإن كانت في يده .

العشـــقُ والسُّكـــر مـــا أبـــاحـــا أنْ أضبِـطَ النفـسَ فـي همـومـي
فعُقـــدة الكِـــمِّ لـــم تُفَتَّـــح إلا بمَـــوْجٍ مـــن النسيـــم[1]

* * *

الإسلام

إنَّ نار « الذَّات » ، والنورُ لديها هـي لـلإسـلام رُوحٌ مستنيـر[2]
إنَّ نار « الذات » ، فاقبس من لظاها فـي حيـاة الخَلْـقِ نـورٌ وسُفـوْر
هـي تقـويـمُ وجـودٍ وهـي أصْـلٌ للتَّجَلِّـي أُخْفِيَـتْ خَلْـفَ سُتـور
إنْ قَلَـى الغـربُ مـنَ الإسـلامِ لفظـاً فلـه اسـمٌ آخـرُ : الفقـرُ الغَيـور[3]

* * *

الحياة الأبدية[4]

صـدَفٌ لنـا هـذه الحيـاة ، وذاتنـا كالقطر من نَيسان في الصدَفات[5]
مـا قيمـة الصَّـدف الـذي لا يستطيـع يُحيـــل قَطْـــراتٍ إلـــى دُرَّات
إنْ صـانـتِ الـذَّاتُ المتينـةُ نفسَهـا أعيَـتْ علـى الأيـام كـلَّ مَمـات

* * *

---

(١) كِمُّ الزهر لا يفتح إلا بالنسيم ، وبيان الشاعر وشكواه كالنَّسيم تفتح بهما نفسه .
(٢) روح الإسلام هي الذات نارها ونورها .
(٣) إنَّ نفر الفرنج من لفظ الإسلام فنحن نسميه اسماً آخر فيه حقيقته هو الفقر الغيور .
(٤) يؤكد الشاعر في هذه الأبيات رأيه في الذات أنَّها مقصد الحياة ، وأنَّها إن قويت واستحكمت ؛ لم تمت .
(٥) يقال : إنَّ الأصداف تكون على سطح الماء مفتوحة ، فإذا نزل مطر نيسان تدخل في كل صدفة قطرة منه فتنطبق عليها حتى تتحوَّل دُرَّة . والشاعر يجعل الحياة صدفةً ، والذَّات قطرةٌ من نيسان . ويريد أن تحكم الحياة الذات كما تحيل الصدفةُ القطرةَ دُرَّةً .

السُّلطان[1]

تَعَلَّمْ ؛ فألفُ مقام وشانِ ... لفقر بدا فيه روح القُرَانِ
إذا انْجلت (الذَّات) في قهرها ... فهذا مقامٌ لملكِ الزَّمان
وتوزن في ذا المقام القُوَى ... قُوَى مؤمنٍ تُبتلى بامتحان
وإنَّك في ذا المقام عظيمٌ ... وظلٌّ من الله في ذا المكان
وما ذاك بغيٌ وقهرٌ ولكن ... هو العشقُ والوَجْد ملءَ الجَنان
فما يستطاع بقهرٍ وبغيٍ ... على الأرض حفظُ الورى في أمان
وأعياك في الدَّهر حفظٌ لفقرٍ ... فأصبحت في الرقِّ خِدنَ الهَوان
وكان على الدِّين سيما سجود ... تُباري الكواكب مِلء العيان
وكان على الشمس منه سَنَاً ... فهل في نجومك منه معانِ ؟

***

إلى الصُّوفيِّ

ترى عيناك دنيا المعجزاتِ ... وفي عينيَّ دنيا الحادثاتِ
ومن دنيا الخيال عجبتَ ، فاعجب ... لدنيا للحياة وللممات
تبدِّلها بنظرةِ غيرِ واعٍ ... وكمْ تدعوك دنيا الممكنات

***

---

(١) السُّلطان الحقُّ هو أحد شؤون الفقر ، كما يفسره الشاعر ، فهو تجلي « الذات » ـ ذات الفقير ـ بالتسلُّط . وليس السُّلطان طغياناً ، أو بغياً إلخ . . (كتبت في بهو بال في رياض المنزل دار السيد راس مسعود) .

صريع الفرنج

- ١ -

نْ تجلّي الفرنج نلتَ وجوداً ... فهمُ منك هيكلاً قد أقاموا
ن (الذات) هيكل التُّرْب خالٍ ... أنت غِمدٌ مُذَهَّب لا حسامُ

- ٢ -

جودُ الإله عندك ريبٌ ... وأرى الريبَ في وجودك أنتا
ا الكونُ جوهرُ (الذات) يُجْلَى ... فانظرنْ أيَّ جوهرٍ قد دفنتا

* * *

التصوُّف[١]

علم اللاهوت في ملكوتٍ ... ليس للدين آسيا - ليس شيًّا
امُ الأسحار في طول وَجْد ... ليس للذات راعياً - ليس شيًّا
ك العقلُ صاعداً للثُّريا ... ليس بالوجد سارياً - ليس شيًّا
ق العقل « لا إلٰه » ولكنْ ... ليس بالقلب مسلماً - ليس شيًّا[٢]
اتي خوافق وسَنا الإصباح ... لم يبدُ خافقاً - ليس شيًّا

* * *

يقصد الشاعر أنَّ علم الكلام إن لم يصلح الدين فهو لا شيء . وكذلك الذكر الذي لا يحفظ « الذات » والعقل الذي لا يصحبه العشق ، والفكر الذي لا يستجيب له القلب .

أي : يقول العقل : « لا إله إلا الله » . . . إلخ .

الإسلامُ الهنديُّ

بـــوحـــدة الأفكـــار تحيـــا أمّـــةٌ ... ودونهـــا الإلهـــام يُلْفَـــى ملحـــدا[1]
لا تُحفـــظ الـــوحـــدة إلا بـــالقُـــوَى ... لـــم يُفلـــح العقـــلُ هنـــا ولا اهتـــدى
يـــا عـــابـــداً ليـــس لـــديـــه قـــوَّةٌ ... اذهـــبْ إلـــى كهـــفٍ وسبِّـــح واعبـــدا
وهـــات إســـلامـــاً بـــه تصـــوُّفٌ ... إلـــى الـــردى والـــذلِّ واليـــأس هـــدى
للشيـــخ فـــي الهنـــد أجيـــزتْ سجـــدةٌ ... فحسِـــبَ الإســـلام حُـــرّاً سيّـــدا

* * *

قطعة[2]

مـــا القلـــب مـــات ، قلـــبٌ ... فـــأحـــيِ ذا الـــرميمـــا
يمحـــــو الفـــــؤاد داءَ ... فـــي أمـــم قـــديمـــا
بحـــرُك فـــي سُكـــونٍ ... سُحُـــر أم أنيمـــا ؟
لا وحـــشَ أو هيـــاجـــاً ... أو ســـاحـــلاً لطيمـــا
وفـــي السمـــاء ســـرٌّ ... لســـتَ بـــه عليمـــا
مـــا هـــاج طـــرفُ نجـــمٍ ... منـــك فتـــى كليمـــا
رمـــى نشيـــدُ صبحـــي ... أبـــاءك الهشيمـــا[3]
شـــرارةً أكِنَّـــت ... فـــي طينتـــي قـــديمـــا
دُنيـــا غـــدٍ وأمـــسِ ... يُبصـــرهـــا عليمـــا

---

(١) بغير توحد الأفكار تعمُّ الفوضى . فالإلهام الذي هو سبيل الإيمان يصير إلحاداً .

(٢) عنوان هذه القطعة في الأصل (غزل) والغزل عندهم أبيات قليلة تجمع أفكاراً مختلفة .

(٣) الأباء : القصب ، وهو سريع الاحتراق . ثم القصب يحرق أحياناً لإخصاب الأرض ، فالشاعر يعني أنّه يحرق الأنفس لتزداد حياة .

مَـــن حـــاز مثلـــي عينـــاً جـــريئـــةً هَجـــومـــا

* * *

الدُّنيا[1]

كـذاكـم بـدا لـيَ بُـوقلمـونِ وقلَّبـتُ فـي الملكـوت النظـرْ
فهـذا هـلالٌ ، وهـذي نجـومٌ وهـذا عقيـقٌ وهـذا حجـر
وعيـنُ البصيـرة أعملتُهـا فـأوحـت إلـيَّ صحيـحَ الخبـر
فهـذا تـرابٌ وتلـك سمـاءٌ وذلـك طَـودٌ وهـذا نَهَـر
ولا أكتـم الحـقَّ : أنـت وجـودٌ ولا شـيء مـا سـاح فيـه البصـر

* * *

الصَّلاة[2]

تلـوَّنُ فـي كـلِّ ثـوب مَنـاةُ وشـاب بنـو الـدَّهـر وهـي فتـاةُ
فهـذا السجـود الـذي تجتـويـه بـه مـن ألـوف السُّجـود نجـاة[3]

* * *

---

(١) أنا كذلك أبصر دنيا الألوان التي تشبه بوقلمون ، وأعرف الهلال والنجم والسماء والأرض . . إلخ ، ولكني أرى أنَّ الإنسان وجودٌ حقٌّ ، وما عداه ليس شيئاً .

(٢) الأصنام لم تنقطع عبادتها ، فلا تزال تظهر بين الناس في صورٍ مختلفةٍ ، فتعبد ضروب العبادات . فاعلم أنَّ سجود الصلاة الذي يثقل عليك ينجيك من آلاف السجود لهذه الأصنام .

(٣) تجتويه : تكرهه .

الوحي[1]

ليس هذا العقل ذو الوهـ ـن حريّاً بالإمامهْ
فحياة الظنِّ والتَّخميـ ـنِ ضَعفٌ وسَقامه
ليس في فكرك نورٌ أو إلى السعي استقامه
كيف يجلو في حياةٍ ذلك الليلُ ظلامه ؟
إنَّ لغز الحسن والقبح ليُعيي ذا الفهامه
حين لا تجلو الحياة السرَّ منها مستهامه

* * *

هزيمة

خلا الصُّوفيُّ مِنْ حُرقٍ وكدٍّ ؛ شرابُ (ألستُ) معذرةُ البطالهْ[2]
وفرّ إلى ترهُّبه فقيهٌ يَرى في الشرع معتركَ البساله[3]
إذا خشي الرجال وغَى حياةٍ فتلك هي الهزيمةُ لا محاله

* * *

العقل والقلب

سيطر العقلُ على الكون أميراً وطوى الأفلاكَ والأرضَ مسيرا
ذا جلالٍ يخضع الكون له غيرَ قلب ثار بالعقل جسورا

---

(١) العقل ظنٌّ وتخمينٌ ، لا تضيء به النفس ، فلا تنجلي به ظلمات الحياة . وإنما إدراك الحسن والقبيح بالوحي ، وهذا لا يتاح إلا بأن تجلو الحياة أسرارها بنفسها .

(٢) يوم « ألست » أو عهد « ألست » إشارة إلى الآية ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، فالصوفي في سكر بذكرى « ألست » يتعلَّل به ، ويعتذر لبطالته .

(٣) لما رأى الفقيه أنَّ الشرع جهادٌ وكفاحٌ فرَّ إلى الترهُّب .

سكر العمل

في طريق الصُّوفيِّ سُكرُ الحال ... وطريقُ الفقيه سُكرُ المقال
ونشيد الشِّعْر المرجَّع مَيْت ... خامدُ اللَّحن لم يُشَب بجمَال
بين نومٍ ويقظةٍ غيرُ صاحٍ ... بين سُكر الأفكار والبَلبال
وبنفسي مجاهدٌ لا أراه ! ... فيه سكرُ الأعمال لا الأقوال

***

القبر[1]

لا يجد القلندريُّ راحةً ... وإن ثوى بقبره تحت الثَّرى
سكينةُ الأفلاك في الضَّريح لا ... فساحةُ الأفلاك أو طولُ السُّرى

***

همَّة القلندر[2]

يقول للزمان ذلك الفتى : ... امض إلى حيثُ يسير المؤمنُ
مالكَ في معتركي مِن طاقةٍ ... حذارِ من قلندرٍ لا يُذعن

---

(١) فكرة الشاعر أنَّ النفس القوية المجاهدة لا تسكن في الحياة ولا بعد الموت . والقلندر أو القلندري : الحر الذي لا يركن إلى سكون ، ولا تقيده رغبةٌ أو رهبة .

(٢) القلندر : يعني به الشاعر الإنسان الّذي لا يصل نفسه بمال ، ولا أهل ، ولا دار وهو في الأصل اسم رجل ذهب هذا المذهب ، وأحدث طريق كان سالكوها يُديمون السفر ، لا يلبثون في مكان ، ولا يقيدهم ملك ، ولا أهل ، ولا وطن ، ويحلقون رؤوسهم .
وسُمِّي سالك هذه الطريقة : قلندر باسم صاحب الطريقة .
وقد رأى المترجم أن يبقي اللفظ في الترجمة لأنه عَلَم في الأصل ، وجعله أحياناً وصفاً وأحياناً نسَب إليه ، فقال : القلندرُ والقلندريُّ .

إذا طغى اليمُّ فهيَّا أقدمنْ ... ما حاجتي مَلاّحه والسُّفُن
لقد محا سحرَك تكبيري فهل ... تَقْوى على جحوده يا وَهِن ؟
يحاسب الأفلاكَ ذا القلندر ... وقاهرٌ أيامَه لا يُقهر

* * *

الفلسفة

ليس يَخفى على القلَنْدر فكرٌ ... ساورَ النشءَ ظاهراً أو خفيّا[1]
أنا عندي بكلِّ حالِكَ خُبرٌ ... فبهذا الطريق سرتُ مليّا
لا يقيم الحكيمُ في شَرَك اللفـ ... ـظ ولا بالحروف كان حفيًّا
ليس همُّ الغوّاص أصدافَ بحرٍ ... يبتغي الغائصون دُرّاً بهيّا
إنَّ في حلقة المجانين عقلاً ... في شَرارٍ يرى لهيباً مضيًّا[2]
إن أغلى من الجواهر ، معنى ... صدَّق القلبُ سرّه مطويا
فلسفاتٌ ما سطّرت بدم القلب ... مَواتٌ أو للمات تُهيّا

* * *

رجال الله

إنَّما الحرُّ من يُجيد ضِرابا ... لا الذي حربهُ تدور هُراء
وسجايا الأحرار تجمع تاجاً ... ذا سناء ، وخرقةً وقَباء[3]

---

(١) القلندر هنا إقبال نفسه .

(٢) بين الذين يعدون مجانين من أصحاب القلوب الحية من يرى الحقائق الكبيرة في مظاهر صغيرة ، فيرى في الشرارة لهيباً عظيماً .

(٣) سجية الحر فيها عظمة الملك ، وفيها خلق الصُّوفية لابسي الخرقة ، وفيها فقه العلماء لابسي القباء .

من خفايا تُرابهم أخذ الدَّهرُ شَراراً فصاغ منه ذُكاء
فِطرةٌ حرَّةٌ تعاف الدنايا من طَواف الأصنام عاشت بَراء
أنت في الكفر والتديُّن جَمْعاً وثنيٌّ تُقدِّس الأهواء[1]

* * *

الكافر والمُؤمن[2]

أمسِ عند البحر قال الخضر لي قولاً أعيه[3]
تبتغي الترياق منْ سُمٍّ فرنجٍ تتقيه ؟
فخُذنْ قولاً سديداً هو بالسيف شبيه
ذا مضاءٌ وضياءٌ خبرةُ الصَّيقل فيه :
إنَّما الكافر حيرانُ له الآفاق تيه
وأرى المؤمن كوناً تاهت الآفاق فيه

* * *

---

(١) الأحرار منزهون عن عبادة الأصنام ، وأنت في إيمانك وكفرك لا تخلو من عبادتها .

(٢) يكرِّر الشاعر هذا المعنى كثيراً : إنَّ المؤمن مسيطرٌ على الكون ، يتصرف فيه ، لا يضلُّ فيه ، ولا يحار ، فهو سائر على قانون يرفعه على الأحداث والغير ، وإنَّ غيره مقهور في الكون حائر ، تتلقفه أحداثه ، وتقلبه غيره .
والفكرة مأخوذة من مثنوي جلال الدين الرُّومي . فقد قصَّ المثنوي قصة افتقاد حليمة الرسول في طفولته وطلبها إيَّاه والهةً ، وأنَّ جبريل لقيها ، فقال لها : لا تخشي عليه أن يتيه في الآفاق ، فهذه الآفاق تتيه فيه .

(٣) يروى أن الخضر صاحب إسكندر سارا حتى بلغا أرض الظلمات ، وفيها عين الحياة ، فشرب منها الخضر ، فخلد ، ولم يهتد إليها إسكندر . فينسب الشعراء إلى الخضر المعرفة والحكمة ، ويقولون عنه ما يشاؤون .

المهديُّ الحقُّ

كلٌّ ثَوى في مَحبسٍ من صُنعه : سيَّارُ إفرنج وثابتُ مشرقِ[1]
والشَّيخُ في حَرمٍ وحَبر كنيسةٍ لا جِدَّةٌ في القول أو في المنطق
أهلُ السياسة في شِراكِ قديمِهم والشِّعرُ أفلس في خَيالٍ مُغلق
من لي بمهديٍّ له نظرٌ يزلزلُ عالَم الأفكار ، غيرَ ممخرِق

***

المُؤمن

ـ ١ ـ

في الدُّنيا

مع الصَّخْبِ لَيْن كمسِّ الحرير بعيدٌ من المَحَكِّ ، المؤمنُ[2]
حديدٌ إذا ما طغى باطلٌ جريء لدى المَعْرَك ، المؤمنُ
من الطِّين ، لكنْ على الطِّين يسمو ويأبى على الفلك ، المؤمن
وما همُّه صيدُ طيرٍ ولكن يصيد من المَلَك ، المؤمن

ـ ٢ ـ

في الجنَّة

تقول الملائك في غبطةٍ : حَبيبٌ إلى قلبنا ، المؤمن

---

(١) الفرنجي : الدائب في العمل ، كالكوكب السيَّار ، والشرقي : القاعد عن السير ، كالكوكب الثابت .

(٢) القافية مردوفة بكلمة « المؤمن » والرويُّ الكاف التي قبلها .

وللحـــور شكـــوى إلـــى ربِّهـــا : سـريـعٌ إلـى هجـرنـا ، المـؤمـن

* * *

محمَّد علي الباب[1]

أجـــابَ (البـــابُ) فـــي حفـــل مفيضـــاً فـــي مقـــالاتِ
وفـــات الشيـــخَ تـــوفيـــقٌ بـــإعـــراب (السَّمـــواتِ)
ســـرَتْ فـــي الحَفْـــل غلطتُـــه فـــلاقـــوه ببسمـــاتِ
فقـــال (البـــاب) : لـــم تَـــدْروا وفـــاتتكـــم مقـــامـــاتـــي
ثـــوى القـــرآنُ بـــالإعـــراب فـــي حَبـــسٍ وإعنـــاتِ
وإنَّ إمـــامتـــي جـــاءت بتحـــريـــرٍ لآيـــاتِ

* * *

القدر[2]
الخالقُ وإبليس

إبليـــس : يـــا إلٰهـــاً أمـــره كُـــنْ ليـــس عنـــه مـــنْ مَحيـــدْ
لـــم يُصَـــب آدمُ منـــي بعـــدوٌّ أو حســـود
ويـــلُ غـــرَّ ، مِـــنْ زمـــانٍ ومكـــانٍ فـــي حـــدود
كيـــف أستكبـــر عـــن أمـــرك أو كيـــف أحيـــدْ

---

(١) ناقش جماعة من العلماء في إيران محمد علي المسمى : الباب ، فقرأ من القرآن ، فلحن في إعراب السموات . فضحك الحاضرون ، فقال : إنَّ بشرى إمامتي تحريرُ الآيات من الإعراب .

(٢) مأخوذة عن محيي الدين بن عربي .

كـــان فـــي علمـــك أنـــي حـــائـــدٌ عـــن ذا السجـــود

* * *

الخالـق : هـل عـرفـت السرَّ هـذا قبـــلَ أو بعـــدَ الجحـــودْ ؟
إبليس : بعـدُ ! يـا مـنْ مِـنْ تجلِّيه كمـــالاتُ الـــوجـــود

(الخالق ناظراً إلى الملائكة)

خِسَّـــةُ الفطـــرة فيـــه علَّمتـــه ذاك عـــذرا
قـــال : مـــا شئـــتَ سجـــودي أنـــا لا أملـــك أمـــرا
ذلـــك الظـــالـــم سَمَّـــى اختيـــاراً فيـــه جَبـــرا
إنَّـــه سمَّـــى رَمـــاداً شُعلـــة فيـــه وجَمـــرا

* * *

أين روح محمَّد ![1]

أرى الملَّـة البيضـاء بُـدِّد نظمُهـا فمسلمُك انظر حاله ، أين يذهب ؟
وليـس ببحـر العُـرب لَـذَّةُ ثَـورةٍ وفي الصَّدر موجٌ غاله ، أيْن يذهب ؟
ولا رَكْـبَ للحـادي ولا زادَ عنـده وقطعُ الفيافي هاله ، أين يذهب
فبيِّـن لنـا الأسـرارَ روح محمـد ! حفيظٌ لآيٍ ، ياله ، أيْن يذهب ؟

* * *

---

(١) يصف الشاعر في هذه الأبيات غمَّه وحيرته ، فالأمة الإسلامية انفرط عقدها ، وفي صدره موجٌ ، ولكن بحر العرب الذين ماجت بهم أحداث التاريخ ليس فيه هياج اليوم ، فيخلط به هذا الموج . وهو حادٍ ولكن لا زاد له ، ولا قافلة يحدوها . وأمامه فيافٍ هائلةٌ . وهو حفيظٌ على آيات الله يبتغي أن يسير بها . فهو يلتمس سبيله في هذا العالم ويسأل روح الرسول أينَ يذهب .

مدنية الإسلام

حياةُ المسلم أعرف في بياني ... كمالُ العقل فيها والجنونُ[1]
سَناً كالصُّبح مَغربه طُلوعٌ ... وحيدٌ ، كالزَّمان له شؤون
ولا كالعصر ، خِلوٌ منْ حَياءٍ ... ولا فيها من الماضي فُتون
حياةٌ بالحقائق في قَرارٍ ... وليستْ ما يُطلسِم أفلَطون[2]
عناصرُها يؤلِّفُها جَمالٌ ... تمثَّل فيه جبريلُ الأمين
وحسنُ الخَلْق من عُجْمٍ لديها ... ونارُ العُرب فيها والشُّجون

* * *

الإمامة[3]

أتسألني : الإمامةُ ما مَداها ؟ ... حبَاك الله مثلي بالخفايا
إمامُ العصر حقّاً من تراه ... فتسأمُ ما تشاهدُ في البرايا
بمرآة الممات يريكَ وجهَ الـ ... ـحبيب فتجتوي عيشَ الدَّنايا

---

(١) الجنون هنا معناه الحماس للعمل والإقدام في غير مبالاة . فحياة المسلم في رأي الشاعر تجمع العقل والإقدام . وهي كالشمس تغرب لتطلع . وهي فذَّةٌ لا نظير لها ، ولكنَّها كالزمان في شؤونٍ متعددةٍ، وهي قائمةٌ على الحقائق ، وجامعةٌ عناصر الجمال والقوَّة.

(٢) ليست قائمة على أفكار أفلاطون ؛ التي ترى الحقائق في عالم المثل ، لا على هذه الأرض .

(٣) يقصد إقبال مَنِ ادَّعوا الإمامة في الماضي وفي عصره . ويرى أنَّ الإمام من يعلو بأصحابه عن قيود الحاضر المشهود إلى عالم المعنى الفسيح غير المحدود . . إلخ .

ويشعـــركَ التخلُّـــفَ عـــن كمـــالٍ فينفـخُ فيـك مشبـوبَ السَّجـايـا[1]
يُمـــرُّ عليـــك مِـــنْ فقـــرٍ مِسَنّـــاً فيطبـــعُ منـــكَ سيفـــاً للمنـــايـــا
فُتـــون الملَّـــة البيضـــا إمـــامٌ كـــأنَّ المسلميـــن بـــه سبـــايـــا[2]

* * *

الفقر والترهُّب[3]

إسلامك الموهومُ شيءٌ آخر ؛ الفقـرُ عنـدك كـالتـرهُّـب يظهـر
شتَّانَ ، فانظر ، بين خَلوة راهبٍ وشِـراع فقـرٍ فـي عُبـابٍ يمخُـر
فـي الـروح والأبـدان يبغـي جلـوةً فنهـايـة الإيمـان (ذاتٌ) تبهـر[4]
هـو صيـرفـيُّ الكـائنـات وجـوده فعـن الفنـاء أو البقـاء يخبِّـر[5]
فـاسـألـه عمـا تـرتئيـه أعـالـمُ أم مـوج رائحـة ولـون يـزخَـر ؟
لمـا أضـاع المسلمـون علـى المـدى ذا الفقر ـ لما ضاع هذا الجوهر
لـم يبـق فيهـم مـن سليمـانٍ ولا سلمـانَ دولـةُ عِـزَّة لا تُقهـر

* * *

---

(١) يشعرك ما فيك من نقص وما فاتك من كمال .

(٢) فتنة الملَّة الإسلامية إمامٌ يمكِّن أصحاب السُّلطان من إذلال المسلمين .

(٣) يشيد إقبال بالفقر ، وينسب إليه المعجزات . وهو فيما يؤخذ من كلامه : التحرر من الطمع والحرص ، وألا يملك الإنسان ما يملكه فيذله ، ويصدُّه عن الحق والخير . وهو لا يشبه الرهبانية في شيء . فمن حسب الفقر رهبانيةً فإسلامه غير الإسلام الذي يعرفه الشاعر .

(٤) الضمير في « يبغي » يرجع إلى الفقر ، وهو يطلب تجلِّي الروح والجسم . وتجلي الذات هو مقصد الإيمان .

(٥) هذا الفقر ينقد الكائنات ، فيقول : هذا للفناء وهذا للبقاء ، وهذا حق ، وهذا باطل .

قطعة[1]

متاعُك في الحياة فنونُ علمٍ ... تظَلُّ الدَّهرَ منها في حُبور
وما عندي متاعٌ غيرَ قلب ... طموحٍ ما أراه بالصَّبور
لأهل الفكر معجزةٌ تجلَّت ... بفلسفةٍ معقَّدة السُّطور
وأهلُ الذكر شادوا معجزاتٍ ... على موسَى وفرعونٍ وطور[2]
أقول لمسلم : ما فيك صدرٌ ... لأنفاس بها حَرُّ النشور
ومزقتُ الجيوبَ وأنتَ خالٍ ... جُنوني ـ لا ألومك ـ في قصور[3]
أقِلَّ القولَ وافتحْ عينَ قلبٍ ... ولا تكُ مُهْذراً عند البصير
وما إنْ ذلَّ قومٌ قد أعدُّوا ... حَماسَ العِشْق والفقرِ الغَيور

* * *

التَّسليمُ والرِّضا

على كل غصنٍ تبيَّن أن النبات مَشوقٌ لِرَحْبِ الفضاء
فما قرّ في ظلمةِ الترب حَبٌّ ... جُنونُ النشوء به والنَّماء
فلا تَبغِ في فِطرةٍ تركَ سعيٍ ... فما ذاك معنى الرضا بالقضاء
لأهل النَّماء فضاءٌ فسيحُ ... وما ضاقَ مُلك الإلٰه ، فسيحوا

---

(١) عنوان هذه القطعة في الأصل « غزل » والغزل في عرف شعراء الفرس ومن قبلهم : أبيات قليلة في موضوع أو موضوعات . وربما لا تشتمل على شيء مما يسمَّى بالغزل في الشعر العربي .

(٢) يقصد بموسى وفرعون كل من له صفات موسى أو صفات فرعون ، فلهذا نكَّرت الاسمين ، وصرفتهما .

(٣) يعني : إني لم أصيرك مثلي مجنوناً ؛ لأن جنوني لم يكمل ، فلم يؤثر فيك ، فاللوم عليَّ لا عليك .

نكتةُ التَّوحيد[١]

إنَّ سـرَّ التَّـوحيـد طـوعُ بَيـانـي ... شِدتَ في الرأس مَوْثَنا، ما احتيالي ؟[٢]
رمـزُ شـوقٍ بـلا إلٰـهٍ خفـيٌّ ... ليس في الفقه بيِّنا، ما احتيالي ؟
كـم سـرورٍ فـي حـرب حـقٌّ وزورِ ... لستَ في الحرب مطعنا، ما احتيالي ؟[٣]
كـم تُجلِّـي الآفـاقَ نظـرةُ حـرٍّ ... حجب الرقُّ أعينا ، ما احتيالي ؟
أيُّ مُلـكٍ مقـامُ فقـرٍ ! ولكـن ... تـؤثـر الـذلَّ مُـذعنا، ما احتيالي ؟

* * *

الإلهام والحرية

إنَّ للحُـرِّ ملهمـاً نظـراتٍ ... تحفِـز القـولَ والفِعـالَ بنـار
حَـرُّ أنفـاسـه يَشيـع بـروضٍ ... فترى الروض مُزهراً منْ شَرار
يَهـبُ العنـدليـبَ سيـرةَ بـازٍ ... كيـف حـالـت طبـائـعُ الأطيـار ؟
يَنـحُ المجتـديـن شَـوكـةَ جـمٍّ ... عـارفُ النفـس والـهُ الأسحـار[٤]
ووقـى الله حكمـةً لـذليـلٍ ... مثـل جنكيـز طـالـعٍ بـالـدَّمـار[٥]

* * *

---

(١) بنى الشاعر هذه القطعة على القافية المردوفة فحاكيته في الترجمة . والروي حرف النون في موثنا ، ومطعنا . . إلخ (المترجم) .

(٢) يمكن أن يبين سرَّ التوحيد ، ولكن ما حيلتي وقد بنيت في رأسك معبداً للأوثان . وقد وضعت كلمتي مصنم وموثن لمكان الصنم والوثن ، ترجمة لكلمتي بت كده ، بتخانه ، ونحوهما .

(٣) كم سرورٍ في مجاهدة الباطل بالحقِّ في هذه الحياة .

(٤) جم : يراد به جمشيد أحد ملوك الفرس في الأساطير .

(٥) يريد أنَّ حكمة الذليل تدمر الأمم كغارات جنكيز خان .

الرُّوح والجِسم[1]

تحيّر الناسُ في ذا اللغز من قدم : ما جوهر الرُّوح أو ما جوهر البدن؟
ومشكلي في اضطراب بي وفي ثَمَل وثـورةٍ وسـرورِ النفـس والحـزن
ومشكـلٌ لـك أنَّ الخمـر مـن قـدحٍ أو أن من خمرة كاساً ، لذي زَكَن[2]
ما اللفظ والمعنى؟ وكيف الرُّوح في بدن؟ جمـرٌ بـدا فـي رَمـادٍ منـه للفَطِـنِ

* * *

« لَاهور » و « كراجي »[3]

قـد تـولـى اللهَ عبـدٌ مسلـمٌ مـا آمـرا
هـو بـالمـوت إلـى عـا لَـم روحٍ سـافـرا
كيـف تَفْـدون شهيـداً لخلـودٍ آثـرا
دَمُـه مـن حَـرَم أعلـى وأغلـى جـوهـرا[4]
آه للمسلـم غفـلانَ نَسِيّـاً مـا درى :
سـرَّ ﴿ لا تـدع مـع الله إلٰهـاً آخـرا ﴾[5]

---

(١) يقول إقبال في هذه الأبيات : إنَّ همي في هذه الحياة القلق ، والثورة ، والسرور ، والحزن . وأنت شغلت نفسك بهذه الأسئلة ولم تشعر بحقيقة الحياة .

(٢) الزكن : الفطنة .

(٣) روي أنَّ هندوكياً في لاهور اسمه : راجيال ، أساء الأدب في الحديث عن الرسول صلوات الله عليه ، فذهب إليه مسلم اسمه علم الدين ، وقتله في غير ضوضاء ، وأن رجلاً من الهنادك في كراجي فعل فعله ، فذهب إليه مسلم من كوهات في غير مشاورة ، ولا مؤامرة فقتله . وأراد المسلمون أن يؤدوا دية القتيلين وينجوا القاتلين من العقاب ، فكتب إقبال الأبيات .

(٤) يعني : أنَّ كل ما تبذلون لا يساوي دم الشهيد . . إلخ .

(٥) الآية : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

النُّبُـوَّة(١)

لستُ المحدِّثَ والفقيهَ ولا الوليَّ ولا المجدِّد
لا علم عندي بالنبوّة كيف توصف أو تحدَّد
لكن إلى الإسلام في الأيام لي نظرٌ مسدَّد
أوحى إليَّ بسرِّه الفلكُ المحيطُ فلا أفنَّد
فرأيت في ظلمات هـ ـذا العصر ذا الحقَّ المؤيَّد :
عندي حشيش المسلمين نبوّةٌ فيهم تجدَّد
ما إن لديها دعوةٌ للبأس والمجد المخلَّد

* * *

الإنسان

ذا طِلَسْمُ الكَون والعَدَمِ سُمِّي الإنسانُ من قِدَم
هو سرُّ الله جلَّ فلا يحتويه الوصفُ في كِلَم
إنَّ هذا الدهرَ من أزلٍ من سفارٍ باء بالسَّقَم
ومضى الإنسانُ سيرتَه لم يُصَبْ بالضَّعف والهَرَم
وإليك السرَّ أُعلنه إن تَسَعْه غيرَ متَّهِمِ :
ما بدا روحاً ولا بَدَناً ذلكَ الإنسانُ للفَهَم

* * *

« مكة » و « جنيوا »

كم حديثٍ عنِ الشُّعوب سمعنا وحدةُ الناس حُجِّبت عن عيانِ

---

(١) يعني الشاعر بهذه الأبيات من ادَّعى النبوة ، ودعا إلى المسالمة والكفِّ عن الجهاد .

حكمةُ الغرب فُرقةُ النَّاس والإسـ ـــلامُ فيـه تـوحُّـدُ العُمـرانِ
ومقـالٍ مـن مكـةٍ لجنيـوا قـد وعـاه اللبيبُ فـي كـلِّ آن :
خبِّريني اليقين : هـل عصبة الأقـ ـــوام خيرٌ أو عصبة الإنسـان ؟

* * *

يا شيخَ الحرم

ودِّع الخلـوةَ يـا شيـخَ الحـرم واسمعنْ في الفجر منِّي ذا النغَم
يحفـظُ اللهُ لـك الفتيـان فـي حُكمِ نفسٍ ، واشتعالٍ في الهمم
هُـمْ عـن الغـرب زجـاجـاً أخـذوا علِّمَنهـمْ صَـدمـة الصَّخْـرِ الأصـم
طُـول ذلٌ أظلـم القلـبُ بـه أدرِكِ الحيـرانَ فـي هـذي الظُّلَـم
فـي جنـونـي منـك أسـرارٌ بـدتْ فاجْزني يا شيخُ عن هذا اللَّمم[1]

* * *

المَهدي[2]

أرى الأقـوامَ تَمضـي فـي حيـاة علـى قـدر التخيّـل فـي الحيـاةِ
فمجـذوبُ الفـرنـج علـى خيـالٍ مـن المهـدي قـاد إلـى النجـاةِ[3]

---

(١) يعني : أن نشوته وولهه وقد عبر عنهما بالجنون أدركا أسرار شيخ الحرم ، فأفشياها ، فهو يسأل الشيخ أن يكافئه عن هذا الجنون .

(٢) كتب سبنجلر يقول : إنَّ ضعف المسلمين من إيمانهم بالقدر والمهدي . فردَّ إقبال بأنَّ هاتين العقيدتين غريبتان عن الإسلام . وكتب مولانا أسلم جرا جبوري يأخذ على إقبال أنَّه يذكر المهدي في شعره أحياناً . فكتب إقبال هذه الأبيات يبين رأيه في عقيدة المهدي ، ويذكر أنَّه يتوسل بها أحياناً إلى نفخ الحياة في موتى الأحياء .

(٣) يعني الفيلسوف الألماني نيتشه ؛ الذي تكلَّم عن الإنسان الكامل .

فإنْ تنفر مِنَ المهديِّ يَنفِرْ غزالُ المِسْكِ من هذي الفلاةِ[1]
إذا ما الحيُّ من جَهل تردَّى بأكفانٍ وأغرَقَ في سُباتِ
أتُسلِم ذا الجهولَ إلى الرَّدى أم تمزِّق عنه أثوابَ الممات ؟

* * *

المُؤمن

إنَّ للمؤمن العجيب الشانِ كلَّ حينٍ جديدَ شانٍ وآنِ
هو في قوله السَّديدِ وفي الفعل على الله واضحُ البرهانِ
فيه قدسيّةٌ إلى جبروتٍ ومن القهرِ فيه والغفرانِ
إنْ تُؤلِّف هذي العناصرُ كان المسلمُ المستعلي على الحِدْثان
هو تُربٌ سما يجاورُ جبريلَ ويأبى الحلول في الأوطان
لست تدري بسرِّه فتراه قارئاً وهو صورةُ القرآن
فيه عزمٌ على القضاءِ دليلٌ وهو في العَالَمين كالميزان[2]
هو بَرد النَّدى بقلب شقيقٍ وبقلب البحار كالطُّوفان[3]
ليله والنهار لحنُ حياةٍ في انسجامٍ كسورةِ الرَّحمٰن
إنَّ فكري مطالع لنجومٍ نجمك أعرف طلوعه في بياني[4]

* * *

---

(١) يعني أن هذه الفكرة تعطر بها النفوس المقفرة ، وتحمل ما يحمله غزال المسك في الفلاة ، فلا تحرم الناس منها .

(٢) يقول إقبال في مواضع كثيرة : إنَّ عزم المؤمن من القدر أو هو مشير على القضاء والقدر ، وإنَّ رأيه وعمله ميزان الصلاح والفساد في الحياة . وهنا يقول : إنَّ ميزان الأعمال في الدارين الدنيا والآخرة .

(٣) هو تارةً كالنَّدى يبرد قلب الشقائق ، وتارةً كالموج الهائج في البحر .

(٤) يقول : أيها الباحث عن مستقبله في طوالع النُّجوم هلمَّ أدلُّكَ على أسباب السعادة ، فإنَّ فكري يطلع نجوماً صادقةً تدلُّ على السَّعد والنَّحس .

المُسلم البَنْجابِي[1]

مجـدِّدٌ فـي كـل حيـن مـذهبـا ... يحـلُّ فـي مـرحلـة ليـركبـا
فـي حَلبـة التحقيـق نِكـسٌ وإذا ... قـامـره داعٍ غـويٌّ غُلِبـا
حبـالـة التـأويـل إن تُنصَـب لـه ... هـوى مـن العُـشِّ إليهـا مُعجبـا

* * *

الحُرية[2]

ألا مَن يطيق اليوم نُصحاً لمسلمٍ ... وحـريـةُ الأفكـار مـن ربِّـه أمـر
من الكعبة اجعل بيت نار وإن تشأ ... فموثَـن أفرنـج بـه الـزورُ والسِّحـر
وإن شئـت فـالقـرآن تـأويـلُ لاعـبٍ ... فجـدِّد لنـا شـرعـاً يـلائمـه العصـر
رأيـتُ بـأرض الهنـد أيَّ عجيبـة ... فـإسـلامُهـا عبـد ومسلمهـا حُـرُّ

* * *

نشر الإسلام في بلاد الإفرنج

هـذي الحضـارةُ مـا تـديَّـن قلبهـا ... فـأخـوّة الإفـرنـج بـالعَصَبـاتِ
فلئـن تنصَّـر بـرهمـيٌّ لـم يـزل ... لـلإنكليـز إليـه نظـرةُ عـات
وَلَـو انَّهـم قـد أسلمـوا لـم يـرفقـوا ... بـالمسلـم المنكـودِ مـن إعنـات[3]

* * *

---

(١) عُرف أهل البنجاب بكثرة النِّحل والدعوات المبتدعة .

(٢) ينعى إقبال في هذه الأبيات على من يدَّعون الحرية حين يتحدثون في الإسلام وحضارته ، فإذا عُرضت أوربة وحضارتها خنعوا لها فكراً وفعلاً .

(٣) لو أنّ الإنكليز أسلموا لم يُحسنوا معاملة المسلم .

لا وإلا[1]

لو لم تسِر في ظلام التُّرب نابتةٌ ... ما نشَّرت في فضاء النُّور أغصانا
تقضي الحياة بـ« لا » في البدء نافية ... وفي النهاية « إلا » تُكمل الشانا
إنْ لم تجىءْ بعدها « إلا » مثبِّتةٌ ... كانت على الموت «لا» في الدهر عنوانا
إنْ أمةٌ روحها لم يمض معتزماً ... عن « لا » فقد آذنت بالهُلْك إيذانا

* * *

إلى أُمراء العرب[2]

هل يُسْعدُ الكافرَ الهنديَّ منطقُه ... مخاطباً أمراء العُرْب في أدبِ
من أمَّةٌ قبل كلِّ النَّاس قد أخذتْ ... بحكمةٍ فأعانتها على النُّوب :
إخاءٌ مصطفويٌّ دون تفرقةٍ ... وهجرُ كلِّ غويٍّ من أبي لهب
ما من حدودٍ وأرضٍ كان منشؤُها ... من أحمدِ العُربِ كانت أمةُ العَرب

* * *

---

(١) يرى إقبال أنَّ الحياة محوٌ وإثباتٌ ، أو هدمٌ وبناء . فالأمة الصالحة تمحو السيىء وتثبت الحسن . وكلمة التوحيد قائمة على نفي غير الله وإثبات الله . فإن محت الأمة ولم تثبت ، أو هدمت ولم تبن فعاقبتها الفناء ، وهو يعني هنا حضارة أوربة عامَّةً والروس الشيوعيين خاصَّةً .

(٢) العرب هم الأمة التي حملت إلى الأمم رسالة الإسلام ، وعلمتها الأخوة والتعاون . والشاعر ينعى على أمراء العرب أن نسوا هذه الرسالة التي بلغوها ، وكانوا أحقَّ بها وأهلها .

الأحكام الإلٰهية[١]

قيدَ القضاء تَرى أم قيدَ أحكام ... ما أعجزتْ هذه أربابَ أفهامِ
في كلِّ حينٍ ترى التقديرَ في غِيَر ... رهينُها بين لذَّاتٍ وآلام[٢]
إنَّ النبات وإنَّ الجامدات لها ... من القضاء قيودٌ ذاتُ إحكام
والمؤمن الحرُّ لا شيءٌ يقيِّده ... لكنْ لخالقه في قيد أحكام

* * *

الموت[٣]

في اللحد أيضاً يبقى الغيابُ والحضور
إنْ يك قلبٌ حيّاً فالقلبُ لا صبور
هذي النجوم تمضي كَسَرَرٍ يطير
والذاتُ فيها راحٌ في أبدٍ سُرور
إنْ مسَّ جسماً موتٌ واحتجب الظُّهور
فللوجود قُطبٌ مَنالُه عسير

* * *

---

(١) إقبال يؤمن بحرية الإرادة ، وينفر كلَّ النفور من الاعتقاد بالجبر والاستسلام للأحداث . وفي هذه الأبيات يقول : إن الجماد والنبات خاضع لقوانين لا يحيد عنها ، وأمَّا المسلم فهو خاضع لأحكام الله لا لقوانين طبيعية تسيره مجبراً . وهذه الفكرة تلقى قارىء شعره في مواضع كثيرة .

(٢) عالم الطبيعة والحادثات في تغير مستمر فمن خضع له تداولته اللذات والآلام .

(٣) يرى الشاعر : أنَّ القلب الحيَّ لا يموت ، فهو حيٌّ بعد الموت ، طموح طلعة ، لا يرضى بالسكون والقرار . وإنما حياة القلب في رأيه بقوة الذات (خودي) . والموت لا ينال الذات حين ينال الجسم .

قُمْ بإذن الله[1]

إن تَحُـل دنيـا فلـم تَفْـنَ أرضٌ وسمـاءٌ ، قـم بـإذن اللهِ
مِنْ « أنا الحقُّ » انطوى فيك قلب ومضـاءٌ ، قـم بـإذن الله[2]
لا تُـرعْ ممـا تـرى ؛ لفـرنـجِ سِيميـاء ، قـم بـإذن الله[3]

* * *

---

(١) في هذه الأبيات يبشِّر إقبال بالمستقبل الوضَّاء على رغم الخطوب ، ويقول : تغيرت الدنيا ، ولكن الأرض والسماء كما كانت . وكلمة « قم بإذن الله » مكررة بلفظها في الأصل .

(٢) يرمز إلى قصة الحلاج الصوفي الذي قال أنا الحق . يقول للمسلم : فيك روح تنتسب إلى الأرواح العظيمة .

(٣) لا يرعك ما يحيط بك من فتن الإفرنج ، فهي سيمياء لا حقيقة له .

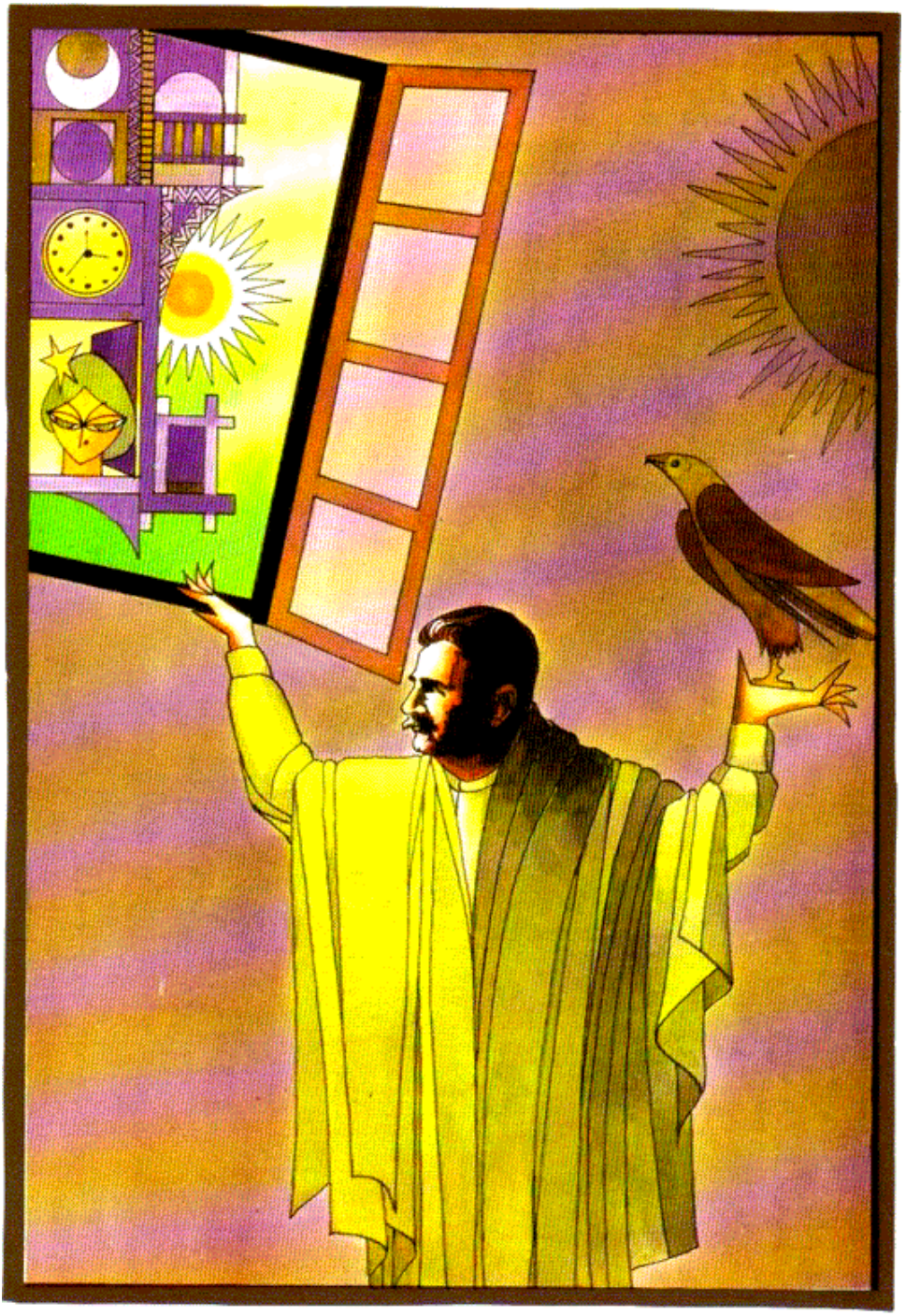

دیارِ عشق میں اپنا مقام پیدا کر!
نیا زمانہ، نئے صبح و شام پیدا کر!

القسم الثاني

التَّعليمُ والتَّربيةُ

المقصود[1]

اسبنوزا :

يبصر العاقلُ الحياةَ وليست ... غيرَ نورٍ وجلوةٍ تُستحبُّ

أفلاطون :

يبصر الموتَ عاقلٌ . فحياةٌ ... كشرارٍ بجنحِ ليلٍ يشبُّ

ما إلى الموت والحياة التفاتٌ ... مقصدُ الذات رؤية الذاتِ حسبُ[2]

***

إنسان هذا العصر

حُرم العِشْقَ وللعقل به ... نكَزاتٌ كشجاعٍ يثأرُ[3]

تبعَ العقلَ شروداً سادِراً ... ما هدى العقلَ لديه بصرُ

لم يسافرْ في دُنَى أفكاره ... وعلى الأفلاك دام السَّفرُ

هو من حكمته في شَرَكٍ ... غابَ عنه نفعُه والضررُ

من شُعاع الشَّمس في قبضته ... ما به ليلُ حياة يُسفرُ !

***

---

(١) يبين هنا الشاعر رأي اسبنوزا الفيلسوف ورأي أفلاطون ورأيه هو في المقصود من هذه الحياة . كُتبت هذه الأبيات في بهو فال في رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .

(٢) هذا رأي إقبال .

(٣) النكزة : عضة الحية ، والشجاع : نوع من الحيات .

أُمم الشَّرق

كيف تُجلى حقائقٌ لعيونٍ عَميتْ بالخضوع والتقليدِ
كيف يُحيي الفرنجُ عُرْباً وفُرْساً بفنونٍ تسيرُ نحو اللُّحود

* * *

التَّنبه[1]

نظر المنجِّم في حِباك نجومه لكنْ مَقامُ الذات عنه يُسْتَر
مَن يَدرِ أنَّ الذات أرفعُ منزلًا عَرف الزَّمان وصرفه لا يُقهر[2]
وجميلَ أنظار يرى وقبيحَها وحلالَ قلب والمحرَّم يُبصر

* * *

مُصلحو الشَّرق[3]

يَئست فلا أرجِّي في أناسٍ لهم فنٌّ كفنِّ السَّامري[4]

---

(١) في هذه الأبيات ينعى إقبال أيضاً على الإنسان اهتمامه بعالم الطبيعة وإهماله نفسه ، ويقول : إنَّ تقوية الذَّات وتقديرها يعين الإنسان على الحادثات ويبصره الجميل والقبيح في البصيرة ، والحلال والحرام ، حلال القلب وحرامه (استفت قلبك وإن أفتاك المفتون) .

(٢) أرفع منزلًا من الفلك .

(٣) يأخذ الشاعر على مصلحي الشرق أنهم لم يخرجوا للناس شيئاً ، وأنهم لم يستمسكوا بالسنن الصالحة القديمة ، ولا أخذوا بالسنن الحديثة .

(٤) السامري : الذي صنع لقوم موسى عجلاً من الذهب ، ودعاهم إلى عبادته ، فتُّه سحر وضلال .

سُقاةٌ في رُبوع الشرق طافوا على النُّدماء بالقَدح الخليِّ
سحابٌ ما حوى برقاً قديماً وليس لديه من برقٍ فتيِّ

***

الحضارة الغربية

أرى تثقيفَ إفرنج فسادَ القلب والنَّظر
فَروحُ حضارةٍ لهمُ خَلَتْ منْ عفَّة الوطر
إذا ما الروح جانبها جمالُ الصَّفو والطُّهُر
فأين جمالُ وجدانٍ ولطفُ الذَّوقِ والفِكَر

***

أسرار ظاهرة[1]

ما بهم حاجةٌ إلى السيف قومٌ منْ حَديد يُصاغُ فيهم شبابُ
أين منكَ الأفلاكُ ؟ إنَّك حُرٌّ وهي قَهْرٌ ذهابها والإيابُ
ما اصطخاب الأمواج ؟ لذة سعيٍ واللآلي يصوغها الوهَّاب
ليس يَهوى الشاهينُ مِنْ طولِ خفْقٍ يا أخا العزمِ لا ينلْك التُّرابُ

***

(١) قال موسوليني لإقبال حين لقيه : منْ ملك الحديد ملك كلَّ شيء . فأجاب إقبال : من كان هو حديداً فهو كل شيء . وقد ضمن هذا المعنى البيت الأول من هذه الأبيات .

وصية السلطان تِيبُو[1]

طـاويَ البيـداء شـوقـاً ! أقبلـنْ ... لا تعـرِّج ، منـزلاً لا تقبلَـنْ[2]
لا ! وإن سـار بليلـى محمـلٌ ... فـامض شـوقـاً ، محملاً لا تقبلنْ
جـدولَ المـاء ! تقـدَّمْ مُسـرعـاً ... واغـدُ نَهْـراً ، سـاحـلاً لا تقبلـنْ
لا تحَـرْ فـي مَصنَـمِ الكـونِ وسـرْ ... فـي البـرايـا ، ضَلـلاً لا تقبلـنْ
يـا مُـذيـبَ الحَفـلِ ! لا تقبـل لـه ... حُـرقـة ، كـنْ مِشعـلاً ، لا تقبلـنْ
كـلُّ قلـبٍ ذلَّ للعقـل فقـد ... قـال ربـي أزلاً : لا تقبلـنْ
وحَّـدَ الحـقُّ وثنَّـى بـاطـلٌ ... فشَـوْبَ حـقٌّ بـاطـلاً لا تقبلـنْ

* * *

قطعة

إلى عَصبات العُرب ما أنت منتمٍ ... ولسـتُ بهنـديٍّ ولا أنـا أعجمـي

---

(١) السلطان تيبو كان من ملوك المسلمين في ميسور جنوبي الهند . وقد حارب الإنكليز زمناً طويلاً ، وحاول أن يؤلب عليهم دولاً إسلامية ، ويتفق مع نابليون ، وكان في مصر حينئذ . فجمع له الإنكليز ما استطاعوا . فلما يئس من النصر ألقى بنفسه من قلعةٍ فمات سنة ١٢١٣هـ .
وهو عند إقبال ممن تتجلَّى فيهم (الذاتية) فقد جعل هذه الوصية على لسانه .
وفي هذه الأبيات أصول من فلسفة إقبال :
يدعو إلى السير الدائب ، وهجر المحمل ولو في صحبة ليلى ، وإلى المضي والتقدُّم والنماء ، فهو يدعو جدول الماء أن يسير حتى يصير نهراً ، وإلى السيطرة على هذا الكون والعلو عليه حتى لا يضل الإنسان فيه ، وإلى أن يحرق الإنسان بحرارة ذاته ولا يقبس من أحد ناراً ، وألا يذل القلب للعقل .

(٢) القافية مردوفة والروي اللام في منزلاً وساحلاً . . . إلخ .

فقد علَّمتني (الذاتُ) تحليقَ نافرٍ ... يمرُّ على الدارَين غيرَ محوَّم
بعينك أني كافرٌ غير مسلمٍ ... وأنت بعيني كافر غير مسلم
فدينُك تعدادٌ لأنفاس مُحجمٍ ... وديني إحراقٌ لأنفاس مُقْدِم[1]
تبدَّلتَ فالتبديل في الشرع حكمةٌ ... فليس يُطيق الظبيُ شِرعة ضيغَم[2]
فلست أرى في بيدِك اليومَ جِنّةً ... تشبُّ بهذا العقل نارَ التَّقدُّم[3]
إذا حاد عن نار الحياة منغِّمٌ ... فموتُ شُعوبٍ لحنُ هذا المنغِّمِ[4]

***

اليقظة

خِدنُ حقٍّ تنبَّهت فيه (ذات) ... كالحسام المصمَّم البرَّاقِ
نظراتٌ لديه تُشرقُ فيها ... ما انطوى في الذرّاتِ من إشراق
إيهِ عبدَ الآفاق ! كيف تداني ... رجلَ الله صاحبَ الآفاق
أنت في البرِّ قاعدٌ عن طِلابٍ ... وهْو في البحر مَحرم الأعماق

***

تربية الذات

ربِّ « الذاتَ » بالرعاية تُبصرْ ... (كفُّ تُرب) يُشيع في الكون نارا[5]

---

(١) أنت تدين بالسكون والإحجام ، فحياتك عدُّ أنفاس ، وأنا أدين بالجد والإقدام فحياتي إحراق أنفاس .
(٢) كرر إقبال هذا المعنى ، يقول : إن الجماعة إذا ضعفت لم تستطع السير على شريعة القوة ، فهي تعمل في تبديلها بدل أن تبدل نفسها .
(٣) يرمز إلى هيام مجنون ليلى في البيداء . والجنون في شعر إقبال الإقدام في غير مبالاة .
(٤) إذا لم تكن الألحان ناطقةً بحرقة الحياة وكدِّها فهي مميتة للهمم .
(٥) تكثر الكناية عن الإنسان بكف من تراب ، أو قبضة من تراب .

إنَّ سرَّ الكليم في الدهر بيدٌ وشُعيبٌ والرعيُ ليلَ نهارا[1]

***

حرية الفكر

بحرية الأفكار هُلك جماعةٍ إذا لم يكن فيها تَدَبُّرُ عالِمِ
فحريةُ الأفكارِ في رأسِ جاهلٍ طريقٌ لِرَدِّ الناس مثلَ البهائم

***

حياة الذات

إنِ الذَّاتُ حيَّتْ فالفقير مملَّكٌ ترى طُغرَلًا أو سنجَراً لا يشاكلُ[2]
إنِ الذَّاتُ حيَّت فالبحارُ ضحاضحٌ إنِ الذَّاتُ حيَّت فالحزونُ مخاملُ
ترى في الحياة الوحشَ قاهر لجِّه وفي موته موجُ السَّراب سلاسلُ

***

حكومة[3]

يَرضى المريدونَ قولَ حقٍّ ليسوا عن الحقِّ بالعُتاةِ
والشيخُ قولَ الفقير يَقلي وليس للحقِّ بالمُواتي
قد قَعَدَتْ أمَّةٌ وباءتْ في حَلبة السَّعي بالخَزاةِ
إنْ شغلت عقلَها ببحثٍ فلسفةُ الذَّات والصِّفاتِ

---

(١) يعني فسحة البيداء وتربية روح عظيمة كشعيب ، والجد الدائب .
(٢) طغرل وسنجر من ملوك السَّلاجقة .
(٣) بمعنى حكم .

دستورُ ذا الديرِ ليس فيه ... للخمر والشَّرب منْ ثَباتِ[1]
لكنما راحُهُ نصيب ... لأمة حُرَّةِ السِّماتِ
الشَّهدُ عند الشباب فيها ... المرُّ من مورد الحياة

* * *

المدرسة الهندية

إقبالُ أقصر ، هنا لا تُعرف الذاتُ ... فما لمدرسةٍ هذي المقالاتُ
الخير ألَّا تُرَى في عين قُبَّرةٍ ... من البُزاة مقاماتٌ وحالاتُ
فلحظة الحرِّ عام للذليلِ فكم ... تبطىء السَّيرَ بالعُبدان أوقاتُ
ولحظة الحرِّ من خُلدِ رسالتُه ... ولحظةُ العبد من مَوتٍ فُجاءاتُ
وفكرةُ الحرِّ من حقٍّ منوّرةٌ ... وفكرةُ العبدِ تغشاها الخرافاتُ
كرامةٌ حيَّةٌ ماثلةٌ ... والعبدُ منْ غيره تأتي الكراماتُ
حسب المُقيَّدِ تعليماً وتربيةً ... تصويرُه ولحونٌ والنباتاتُ[2]

* * *

التربية

فرقُ علمٍ وحياةٍ ... ليس فيه مِنْ خفاءْ
هو في الرأس ذكاءٌ ... وهي في القلب ذَكاءْ[3]
قدرةٌ في العلم تبدو ... ومتاعٌ وثراءْ

---

(١) يكني عن الدُّنيا بالدَّير القديم ، وقد حذفت القديم في الترجمة .
(٢) يعني : حسب الذليل أن يعنى بهذه العلوم والفنون ، لا تدرك نفسه معاني الحياة السامية التي تسيطر بها على العالم .
(٣) ذكاء : اتقاد .

مُعضـــلٌ أنْ ليـــس فيـــه ... فـــي خُطـــا السَّيـــر اهتـــداءْ
وأولـــو الأبصـــار نـــزرٌ ... وأولـــو العلـــم زُهـــاءْ
ليـــس بِـــدعـــاً أنَّ كـــأســـاً ... لـــك مـــنْ راحٍ خَـــلاءْ
مـا طـريـقُ الشَّيـخ فـي المكتـب ... للقلـــــبِ ضيـــــاءْ[1]
كيـــف بـــالكبـــريـــت إشعـــا ... لُ ســـراجِ الكهـــربـــاءْ ؟

***

الحسن والقبيح[2]

إنَّ للفكـــر طُلـــوعـــاً وغـــروبـــاً ... كنجـومٍ سـابحـاتٍ فـي العـوالـي
عـــالـــمُ الـــذات بـــه عُلْـــوٌ وسُفـــلٌ ... واعتـــراكُ القبـــحِ فيـــه والجمـــالِ
فـي اعتـلاء الـذات مـا يبـدو جميـلٌ ... وقبيـــح مـــا بـــدا فـــي الاسْتفـــالِ

***

موت الذات

مِنْ ممات الذَّات في الغرب ظلامٌ ... وبموتِ الذَّات في الشرق جذامْ
مِنْ ممات الذَّات في العُرب خمودٌ ... ولـــدى العُجـــم عـــروقٌ وعظـــامْ
مِـنْ ممـات الـذَّات فـي الهنـد جَنـاحٌ ... هِيضَ في الأقفاص والعشُّ حرامْ
مِـنْ ممـات الـذات يُعـري مسلمـاً ... مِـنْ ثيـابِ سـادنُ البيـتِ الحـرام[3]

---

(١) المكتب ـ المدرسة : وفي تركية : المدرسة خاصة بالعلوم الدينية ، والمكتب لما يسمى مدرسة في مصر . والكلمة بعينها في الأصل .

(٢) هنا رأي لإقبال في الحسن والقبح متصل بفلسفته في الذات وقوتها وعلوها . يقول : ما تدركه الذات في اعتلائها جميل ، وما تدركه في استفالها قبيح .

(٣) في الأصل « شيخ الحرم يبيع ثوب الإحرام ويأكله » والمعنى أن موت الذات قعدت بالمقيمين في الحرم عن المساعي ، وسوغت لهم سفساف الأمور ، فطوعت لهم =

ضيف عزيز

ضميرُ أولي المدارسِ في ازدحامٍ ... بأفكارٍ كما امتلأ القفيزُ
وهذا العصرُ ماضٍ في هواه ... جميلاً من قبيحٍ لا يَميزُ
ففي جَنَبات قلبك أخلِ بيتاً ... عسى يثوي به ضيفٌ عزيزُ[1]

* * *

العصرُ الحاضر

فأينَ يُصيب المرءُ ناضجَ فكرةٍ ... وأجواءُ هذا العصر لا تُنضِجُ الثَّمر
مدارسُ فيها كلُّ عقلٍ محرَّرٌ ... ولكنْ بها الأفكارُ عِقْدٌ قد انتثر
أطاحت بعشق الغرب أفكارُ ملحدٍ ... وعبَّدَ عقلَ الشَّرق فَوضى من الفِكَر

* * *

طالب العلم[2]

الله يحبوك عِلماً ... بمائجاتِ العُبابِ
فإنَّ بحرَكَ رَهْوٌ ... ما يُبْتَلى باضطرابِ
لن تستطيع فراغاً ... في السِّفْر من أبواب

= أنفسهم أن يأخذوا ثوب الإحرام ليعيشوا به .

(١) ينبغي أن يخلى القلب حيناً من الأفكار المتزاحمة التي تشغله ليفرغ للواردات النفسية ، والمعاني الروحية العالية .

(٢) يريد إقبال بالتعليم إيقاظ نفس الطالب ، وتحريكها ، وإثارتها للنظر ، وحفزها للمطالب العالية ، لا تلقينها مسطورات الكتب .

فـــأنـــت قـــاري كتـــابٍ ولســـتَ أهـــلَ كتـــاب

***

امتحان[1]

قـال نهـرُ الطَّـوْد يـومـاً للحجـر : بسقـــوطٍ وانتكـــاسٍ تفتخـــر !
أنـــت لـــلأقـــدام والغـــمِّ لَقًـــى وأنـــا يشتـــاقنـــي بَحـــرٌ وبَـــرّ
لـــم تُـــدَهْـــدَهْ مـــن جِـــدارٍ مـــرَّةً كيـف تُـدرى أزجـاجٌ أم حجـر ؟

***

المدرسة[2]

مَلَـكُ المـوتِ عصـرُنـا يتـوفَّـى كـلَّ نفـس بفكـرةٍ فـي المعـاش
يَـرجُـف القلـبُ مِـنْ كفـاحِ حيـاةٍ وهـي مَـوتٌ لمُشفـقٍ مـن هِـراش
أبعـدَ الـدرسُ عـن حِجـاك جُنـونـاً صـاحَ بـالعقـل : لا تَلُـذ بنِقـاش[3]
عيـــنُ صقـــر مُنِحتَهـــا وعليهـــا وضـــع الـــرقُّ نظـــرةَ الخفَّـــاش
حجبـتْ دونـك المـدارس سـرّاً هـو فـي البيـدِ والـرَّواسـخِ فـاشِ

***

---

(١) في الأبيات التالية يضرب إقبال مثلاً لرأيه في أنَّ الكدَّ والجهد يقويان الإنسان ، ويرفعانه ، وأنَّ الحياة لا تكمل دون عناء ـ يمثل بالنهر المنحدر من الجبل يهوي من صخر إلى صخر . . . إلخ .

(٢) يقول إقبال : إنَّ المدارس وسيلة إلى الوظائف ، وسبيلٌ إلى المعايش ، وهي لا تقدم بالإنسان على جهاد الحياة ، بل تهبط بالفطرة ، وتحجب عن الإنسان أسرار الخليقة . وإن يكن عنى مدارس الهند فما أشبه كثيراً من المدارس بها ! .

(٣) جنونٌ يقول للعقل أقدم ولا تتعلل بالجدل وتلذ بالمعاذير .

الحكيم نيتشه[1]

أي قـدرٍ لـذا الحكيـم ولكـن ... لـم يكـن أهـلَ نكتـةِ التَّـوحيـدِ
ليـس إلا لـذي البصيـرة يبـدو ... سـرُّ معنـىً بـ (لا إلٰـه) بعيـدِ
أرسـلَ الفكـرَ أسهمـاً فـي سمـاءٍ ... وحـوى الشمـسَ بـالخيـال المديـدِ
طـاهـرُ الطِّيـن فـي التـرهُّـب لكـن ... لـذةُ الإثـم نُصـبُ طَـرْفٍ حـديـدِ

* * *

الأساتذة

إنْ كان تربيةُ الياقوتِ مقصِدَنا ... فما شعاعٌ رمَته الشمسُ حيرانُ[2]
وما المدارس أو ما الدارسون بها ... وللـروايـات عـمَّ الأرضَ إذعـانُ
كـانـت جـديـراً بقَـود العصـر أدمغـةٌ ... يقـودهـا العصـر مـا فيهـنَّ نُكـرانُ

* * *

قطعة

يبلـغُ المنـزلَ سـارٍ لا ينـامْ ... مُسـرجٌ عيـنَ هِـزبْـرٍ فـي الظـلامْ
إنَّمـا للعبـدِ تُمنَـى راحـةٌ ... ليـس للحـرِّ علـى الأرض حمـامْ

---

(١) إقبال يعجب بنيتشه الفيلسوف الألماني وفي فلسفته شبه بفلسفته ، ولكنه يأخذ عليه أنَّه عرف العقل لا القلب ، وأدرك العلم لا العشق . وهنا يقول : لم يكن « لنكتة التوحيد أهلاً ، وأنه كان صرورة عفّاً ، ولكن كان يتشوَّف إلى لذة الإثم ، فيكثر الحديث عنها » .

(٢) يقول الطبيعيون القدماء : إنَّ العقيق والياقوت ونحوهما من الأحجار النفيسة تنضج بأشعة الشمس . ويقول إقبال : إن كان القصد تربية النشء فلا تجدي هذه الأشعة الحائرة المتفرقة . تربية النشء تقتضي أن يؤثر الأساتذة في التلاميذ تأثير أشعة الشمس المتجمعة في الأحجار النفيسة .

قد أزاغَ العينَ في الغرب سَنَاً ... لك من صاحبِ ﴿ ما زاغ ﴾ إمامْ[1]
ذاكمُ الحفلُ الذي أكؤسه ... كنجومٍ ، لمحةٌ فيه المُقامْ
أعمَتِ الأسفارُ حِسَّاً فالصَّبا ... لم تعطَّر لك من روضٍ مشامْ[2]

***

الدِّين والتعليم

قد عرفنا قدرَ أشياخ الحَرَم ... كلُّ دعوى دون إخلاصٍ سَقَم
ولتعليم النَّصارى نغمٌ ... ليس من دينٍ وخُلْقٍ ذا النَّغَم
تكتبُ الذُّلَّ على أقدارها ... أمَّةٌ بالذات فيها لا تُهَمّ
ربما تَغفِرُ للفرد ولا ... تغفِرُ الفطرةُ آثام الأمم

***

إلى جَاوِيد[3]

- ١ -

حَربٌ على الأديان ذا الزمانُ ... مركَّبٌ في طبعه الكفرانُ

---

(١) يشير إلى الآية في سورة (النجم) ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [النجم : ١٧] وصاحب ما زاغ هو الرسول عليه السلام .

(٢) يعني أنَّ العكوف على الكتب أمَات الحس . فالصَّبا تمرُّ على الروض ، وتأتي الأيك فلا تشم رائحة الروض فيها . حجبت الكتب عن النفس إدراك المعاني الروحية العالية ، وأغفلت الإنسان عن وحي الكون .

(٣) جاويد ابن الشاعر ، وباسمه نظم « جاويد نامه » الديوان الخالد .
والأبيات الآتية معارضة لشعر نظامى الجنزي (الكنجوي) الذي ينصح فيه ابنه . وقد ختم إقبال كل قسم من الأقسام الثلاثة الآتية التي قسم إليها نصيحة جاويد ببيت فارسي من أبيات نظامي التي نصح بها ابنه . ونظامي من أئمة شعراء الفرس .

سُـدَّة أهـل الله ـ فـاطلُبْنهـا ـ أرفـعُ ممـا شيَّـد السُّلطـانُ
لكنـه « الحـقّ » عصـرُ سحـرٍ السِّحـرُ فـي أمـوره ميـزانُ
عيـنُ الحيـاة مـاؤهـا نَضُـوبٌ فـأيـنَ راحُ الليـل والـرَّيحـانُ
مَـنْ كـان فـي نظـرتهـم سِهـامٌ منهـم خـلا الكُتّـاب والـديـوان
لكنمـا الـدَّار التـي سـراجٌ أنـت لهـا مَـذاقُهـا عِـرفـانُ[1]
إنْ تـك (لا إلٰـه) فـي ضميـر فـالغـرب مـن تعليمـه أمـانُ
عُشُّـك فـوق (الـذات) أحكِمَنْـه ثـم اطـرَبَـنْ مـا شـاءت الأغصـانُ
الآدمـيُّ يـا بنـيَّ بحـرٌ فـي كـلِّ قطـرةٍ بـه طـوفـانُ
مِـن حَبَّـة تـرى ألـوفَ حَـبٍّ إمّـا جفـا راحَتـه الـدِّهقـانُ
لا تغفلَـنْ فـلاتَ حيـن لِعْـبٍ العلـمَ حصِّـلْ واسْتَهِـنْ بـالصَّعْـبِ

- ٢ -

إنْ لـم يكـنْ فـي الصَّـدر حرُّ قلـب لـم تنضـجِ الحيـاة فـي هُمـام
إن ينشَـطِ الغـزالُ فـي ذَكـاء لـم يظفـرِ الصَّيـادُ بـالمَـرام[2]
مـاءُ الحيـاة هـاهنـا قـريـبٌ طـريقُـه حـرارةُ الإقـدام[3]
فـي غيـرةٍ أرى طـريـقَ حـقٍّ الفقـرُ بـالغيـرة فـي تَمـام

---

(١) يعني : دار إقبال التي نشأ بها جاويد .

(٢) إنَّما يصاد الصيد حين يغفل ، أو يبطىء . فإن كان يقظاً وثَّاباً لا يظفر به الصياد . فالإنسان لا تخضعه الحادثات إن صحبه الذكاء والإقدام .

متى تحملِ القلب الذَّكيَّ وصارماً وأنفـاً حميـاً تجتنبْـكَ المظـالـمُ

(٣) ماء الحياة يوجد في هذه الدنيا والسبيل إليه الجدُّ والكدُّ ، وشدَّة العطش . كما قال في رسالة المشرق :

غصـنُ الحيـاةِ نـدي مـن ظمئنـا فـي الطِّـلاب

يـــا قـــرةَ الأعيُـــنِ مستحيـــلٌ لبـــاشـــقٍ ضَـــراعـــةُ الحَمـــام[1]
ليـــس المقـــالُ فـــي الأنـــام نـــزراً كـــم أنـــوريٌّ عنـــدهـــم وجـــامـــي[2]
وإنمـــا بيـــن الـــورى متـــاعـــي نُـــواحُ خـــالٍ فـــي دُجـــى الظَّـــلام
وصـــدقُ أقـــوال بهـــا تـــرانـــي فـــي نظـــر الـــدُّنيـــا مـــن الكـــرام
مـــوهبـــةُ الخـــلَّاق لا تُـــراثٌ نبـــاهـــة الـــذِّكـــر علـــى الأيَّـــام
لنـــور عينيـــه يقـــولُ نصحـــاً مـــا أجمـــل المقـــالَ مـــن نظـــامـــي[3]
أبـــوَّتـــي ليســـت بـــذات بـــالٍ فـــي حَلبـــة السَّبـــقِ إلـــى المعـــالـــي

- ٣ -

عـــبءٌ علـــى المؤمـــنِ ذي الليـــالـــي الـــدِّيـــنُ والـــدولـــةُ فعـــلُ هـــازي
ولا أرى نشـــوان فـــي كِفـــاحٍ فليـــس إلا كَلِـــيمٌ نَـــوازي
فـــإن تكـــن ذا همَّـــة فـــأقـــدم وابتـــغ فقـــراً أصلـــه حجـــازي[4]
الآدمـــيُّ منـــه فـــي صِفـــاتٍ كـــالله مستغـــنٍ بـــلا إعـــواز
هـــذا المَقـــامُ للبُغـــاث حَتـــف فـــإنمـــا هـــذا مقـــام البـــازي
تُضـــيء عيـــنُ العقـــل مـــن سَنـــاهُ مـــا بـــابـــن سينـــا كُحِلـــت والـــرازي
سطـــوةَ (محمـــودٍ) تُصيـــب فيـــه إنْ لـــم يكـــن طبعُـــك مـــن إيـــاز[5]
فـــذاك فـــي دنيـــاك إســـرافيـــلٌ مـــن نَفَخـــات النَّـــاي فـــي اشمئـــزاز[6]

---

(١) الباشق ضرب من الطيور الجوارح . ولا يذل الباشق كالحمام ، فكذلك الكرام لا تضرع ضراعة الحمام .

(٢) ليس الكلام في الناس قليلاً ، فكم فيهم من شاعر مثل الأنوري والجامي . وهما من كبار شعراء الفرس .

(٣) نظامي شاعر فارسي كبير ذكر في مقدمة هذه الأبيات .

(٤) فقر نسب إلى الرسول الحجازي . راجع المقدمة في الكلام على الفقر .

(٥) السلطان محمود بن سبكتكين وغلامه إياز يشيع ذكرهما في الآداب الإسلامية الشرقية . وضرب محمود وإياز هنا مثلاً للعظمة والحقارة .

(٦) فذاك : إشارة إلى الفقر فنفسه لا يلائم الناي ولكن صور إسرافيل .

نظـــرتُـــه المثيـــرةُ الليـــالـــي ساريـــةٌ بـالكـــون فـــي ارتجـــاز
وصـــاحـــب الفقـــر الغيـــورِ هـــذا بـــلا ســـلاحٍ فـــي الـــزمـــان غـــازِ
إمـــارة المـــؤمـــن فيـــه ســـرُّ عطيَّـــةُ الـــوهَّـــاب هـــذا الفقـــر

***

القسم الثالث

المَـــرأة

الرَّجل الإفرنجِي

كـم حكيـمٍ قـد تمنَّـى حلَّـه ... مشكـلُ المـرأة فـي هـذي الحيـاةِ
لا تلُمْهـا فـي فسـادٍ شـائـعٍ ... شهـدتْ بـالطُّهـر كـلُّ النَّيِّـراتِ
عِشـرة الإفـرنـج نهـجٌ مُفسـدٌ ... جهِـل الحمقَـى طبـاعَ المحصَنـاتِ

* * *

سؤال

إلـى عـالـم الغـرب مـن أسلسـت ... له الرومُ والهندُ يُزجى سؤالْ :
كمـال معـاشـرةٍ عنـدكـم ... حيـالُ النِّسـاءِ وعُطْـلُ الرِّجـال ؟[1]

* * *

حِجاب

أرى فلكـاً كـلَّ حيـن للـونِ ... ولـم تَنـضُ دنيـاك هـذا الإهـابْ
ولا فـرق مـا بيـن عِـرسٍ وعِـرسٍ ... فـذي فـي نقـابٍ وذا فـي نقـابْ[2]
ولـم يـزلِ النَّـاس رهـنَ حجـابٍ ... ومـن بَـرزتْ ذاتـهُ مِـنْ حجـابْ ؟

* * *

---

(١) الحيال : الخلو من الحمل .

(٢) نقاب الرجل والمرأة في هذا البيت يفسره ما في البيت الذي بعده ، أنَّ الذات لا تزال في حجاب . والعرس : الزوج للرجل والمرأة .

الخلوة

فَضَحَ العصرَ جِنّةٌ بالسُّفُورِ ... نُورُ عَيْنٍ وظُلمةٌ في الصُّدورِ
إن تجُز متعةُ العيون مَداها ... كان فيها الشتاتُ في التفكيرِ
قطرةُ الماء لا تُحوَّل دُرّاً ... دون أصدافها بقاعِ البحورِ
تُمسكُ الذَّاتُ نفسَها حين تَخلو ... لا خلاءٌ بمسجدٍ أو ديورِ

***

المرأة

إنَّما المرأةُ لونٌ ... في رسوم الكائناتِ
لحنُها ينفثُ نارَ الوَجد في صدر الحياةِ
ذلك الطينُ تعالى ... فوق أوْج النَّيِّراتِ
إنها دَرجٌ لديها ... كلُّ دُرٍّ من صفاتِ
ما لأفلاطون تَروي ... من قضايا معضلاتِ
وهْو منها كشرارٍ ... من ذكيِّ الجَمرات[1]

***

حرِّيةُ النِّساء

قضيةُ عصرٍ لستُ فيها بفَيْصلِ ... وإنْ كنتُ بين الشَّهد والسُّمِّ أفرِقُ
وما نفعُ أقوالٍ تزيدُ مَلامتي ... وقبلاً بنو التمدين عنِّي تفرقوا
يبيِّنُ هذا السِّرَّ وجدانُ مرأةٍ ... ويَعْجِزُ عنه في الرِّجال المحقِّقُ

---

(١) يعني : أن المرأة لا تتفلسف ، ولن تلد الفلاسفة .

أحـــرِّيـــة النِّســـوانِ أجمـــلُ زينـــةً أم الجيـدُ بـالـدرِّ الثميـنِ يطـوَّقُ[1]

* * *

حصانة المرأة

فـي الصَّـدر حـقٌّ ليـس يُـدركـه مـن حـاز بـردَ دِمـائـه عَصَـبُ
حفـظُ الأنـوثـة فـي يـديْ رجـلٍ لا العلـم يحفظهـا ولا الحُجُـبُ
إنْ غـاب هـذا الحـقُّ عـن أمـمٍ فكسـوفُ شمـسٍ فيهـمُ كَثَـبُ

* * *

المرأة والتعليم

مَوْتَ الأمومة إن رامت حضارتُهم فالموتُ عاقبة الإنسان في الغربِ
إنْ يجعـلِ المـرأةَ التعليـمُ لا امـرأةً فالعلمُ مَوتٌ يراه صاحبُ القلبِ
إنْ تحـرمـنَّ الفتـاةَ الـديـنَ مـدرسـةٌ فالعلمُ والفنُّ موتُ العِشق والحبِّ[2]

* * *

المرأة

بغيـره يتجلَّـى جـوهـرُ امـرأةٍ ووحـدَه يتجلَّـى جـوهـرُ الـرَّجـلِ
حـرارةُ الشَّـوق سـرٌّ فـي بـلابلهـا كيـانُهـا لـذَّةُ التخليـق كـالشُّعَـلِ

---

(١) هذه قضية لا يفصل فيها إلا المرأة : أحرية المرأة كما نرى اليوم أحبُّ إليها . أو غل عنقها بعقد من اللؤلؤ في رعاية زوج وصيانة بيت .

(٢) إن أغفلت المدرسة الدين الذي يحفظ للمرأة حرمتها وحدودها ؛ فعلمها وفنها موت عاطفة المرأة ، وذهاب الحب الحق .

مـن هـذه النـار أسـرارُ الحيـاة بَـدَت والخلقُ والموتُ منها في وغىً زَجِلِ
كـذلكـم فـي فـؤادي للنسـاء أسـىً لكنَّهـا عقـدةٌ أعيـتْ علـى الحيـل[1]

* * *

(١) هو كذلك يرثي للمرأة مما أعدتها الفطرة له وما حملتها إياه . ولكن لا حيلة لأحدٍ في هذا .

القسم الرابع

الأدب والفنون

الدِّينُ والفنُّ

الدِّينُ والفنُّ والتدبير والخُطَب ... والشِّعر والنَّثر والتحريرُ والكتبُ
كلٌّ يُحيط بمكنونٍ يَضنُّ به ؛ ... في صدره يتوارى جوهرٌ عَجَبُ
ومن ضميرِ سليلِ الطِّين مطلعُها ... لكنْ لها من وراء الزُّهْر مضطرَبُ[1]
إنْ تحفظِ « الذاتَ » هذي فالحياةُ بها ... أوْ لم تطقْ ذاك فهيَ السِّحر والكَذِبُ[2]
كم أمةٍ تحت هذي الشمسِ قد خَزِيتْ ... إذْ جانب الذاتَ فيها الدِّينُ والأدبُ

* * *

التخليق

جِدَّةُ الدُّنيا بتجديد الفِكَر ... ليست الدُّنيا بصخرٍ ومَدَرْ
همَّةُ الغائص في « الذَّات » لها ... من غديرِ الماء بحرٌ قد زَخَر
قاهرُ الأيام من أنفاسه ... هي أعمارُ خلودٍ في الدَّهَر
ريحُ أصحابٍ من البيد أتت ... لا عجيبٌ إنْ بدا خِدْن سفَر[3]

* * *

---

(١) سليل الطين : الإنسان .
(٢) الدين وسائر ما ذكره في البيت الأول مقصدها حفظ الذات . . . إلخ .
(٣) يعجب إقبال بالبادية : لأنَّ الذات فيها أقوى ، ولذكرى الرسول وأصحابه الذين أخرجوا للعالم الحياة والقوة . وهو يجد من البادية ريحاً تبشر بصاحب مسعدٍ له ، يدعو دعوته ، ويحقق أمله .

جُنون

واهـنُ البيـت شـاعـرٌ وفقيـهُ ... وطـوى البيـدَ ـ ويحـه ـ المجنـونُ
فـي طمـاحِ الجنـون أيُّ كمـالٍ ... حيـن تعـدو البيـداء منـه فنـونُ[1]
فلـه فـي الـدروس أيضـاً مجـالٌ ... ليـس وقفـاً علـى الفيـافي الجنـون

***

إلى شعره

لـيَ مـن فعلـك شكـوى : ... همـتَ فـي حُـبِّ الطلـوعْ
شِعْـتَ عـن قلبـيَ فـالأسـ ... ـرارُ عـن قلبـي تَشيـعْ
لا تكـنْ مثـلَ شَـرارٍ ... نـدَّ عـن نـارٍ يضيـعْ
والتمـس خلـوةَ صـدرٍ ... فيـه مـن نـارٍ ضلـوعْ

***

مسجدُ « باريس »

يـا نظـري لا يخـدعنَّـك فنُّـه ... للـزُّور هـذا الحـرَمُ المغـرِّبُ
وليـس هـذا حـرَمـاً لكنَّـه ... عنـد الفـرنـج للغـرام ملعـبُ
قـد أخفـت الإفـرنـج رُوحَ مَـوثـنٍ ... فـي صـورةٍ مـن حـرَم تُكـذِّبُ[2]
إنَّ الـذي شيّـد هـذا مـوثَنـاً ... دمشـقُ مـن عُـدوانـه تخـرَّبُ

***

---

(١) إن تجاوز البيداء إلى الحضر فنونه ، وفيه إشارةٌ إلى مجنون ليلى .

(٢) الموثن : معبد الأوثان .

الأدب[1]

رأيتُ العشق يقفو اليوم نهجاً ... من العقل الإلٰهيِّ القويم
وليس يُريق ماءَ الوجه ذلًّا ... على عَتبات محبوبٍ غريم
محا التقليدَ في روح قديمٍ ... وأحيا الروح في جسدٍ قديم

* * *

البصيرة

الربيعُ النضيرُ مِلءُ الفضاء ... وجيوشُ الشَّقيقِ في الصحراء
وشبابٌ ومتعةٌ وسُرورٌ ... ودلالٌ ونشوةٌ بالفَتاء[2]
وعيونُ النُّجوم في حَلَك الليل ... وسَبْح الأفلاك في الدأماء[3]
وعَروسُ الهلال في هَودج الليل ... تَهادى بموكبٍ للقاء
وتبدِّي ذُكاءَ في رَونق الصُّبح ... وصمتُ الأفلاك في ذا الرُّواء
سرِّح العينَ ، لا تكلِّفُ أجراً ... لا يباعُ الجمالُ في ذا الفضاء

* * *

مسجدُ قُوة الإسلام[4]

تملأ صدري همومُ مفؤودِ ... لم يبق إلا ادِّكارُ مفقودِ[5]

---

(١) بهذا يُجمل الشاعر طريقة الأدب الحديث ، فهو مزاج من القلب والعقل . وهو يجدد الروح في صور قديمة ، أو يحرر من التقليد الأرواح العتيقة . (كُتبت هذه الأبيات في بهوفال . ـ رياض المنزل ـ دار السيد راس مسعود) .

(٢) الفتاء : الشباب .

(٣) الدأماء : البحر .

(٤) مسجد عظيمٌ شامخٌ في دهلي ، هدمت بعض جدره .

(٥) المفؤود : حزين الفؤاد .

قد خمدت « لا إلٰه » لا حُرَقٌ ... ولا تجلُّ ثَواءَ ملحودِ

في الخلق كلُّ العيون تنكرني ... أعيا إيازاً مقامُ محمودِ[1]

مِنْ صَخرِكَ المسلمونَ في خجَلٍ ... لجوهرٍ كالزُّجاج معدودِ[2]

فإنَّما كُفءَ ما تمثَّلهُ ... صلاة حُرٍّ ربيبِ توحيدِ

جلالُ تكبيره لذي أذُنٍ ... فيه وغى هالكٍ وموجودِ

وما صلاتي بقلب ذي حُرَقٍ ... ولا دُعائي دعاءُ معمودِ

ولا أذاني جلالُ مقتدرٍ ... فكيف ترضى سجودَ رِعديدِ

* * *

مسرح

تضيء حريمَ وجودكَ ذاتُك ... كِفاحٌ بها وسرورٌ حياتُك

لها فوقَ أوجِ الثُّريا مَقام ... جُليتَ بها وتجلَّتْ صِفاتُك

أمِن « ذات » غيرك تَعمُر قلباً ... معاذ الإلٰه ! تُرَى أين ذاتُك ؟

فلا تبعثنْ وُثنَها بعد موتٍ ... فتحيا مناتُك فيها ولاتُك[3]

كمال المحاكاة أنت تَفنى ... فيكفيك همَّ الحياة مماتُك[4]

* * *

---

(١) السلطان محمود وإياز مولاه ، أي لا ينال العبد مقام السيد .

(٢) لجوهرهم الضعيف كالزُّجاج .

(٣) الوثن : جمع وثن . ومناة واللات صنمان ذكرا في القرآن .

(٤) كمال التمثيل أن يفنى الممثل فيما يمثله ، فعليك أن تفنى فيمن تحاكيه ما دمت مقلداً فتستريح من عناء الحياة .

شعاعُ الأمل[1]

- ١ -

تنادي أشعتَها في ضجَر ... ذُكاءُ وتجمعُ منها النثَرْ[2]
عجبتُ لدنيا نهارٌ وليلٌ ... عجبتُ عجبتُ لدنيا الغِيَر
إلامَ الهُيامُ بهذا الفضاء ... وجورُ الزَّمان بكنَّ استمرّ
فلا دِعَةٌ في اتقادٍ برملٍ ... تَلألأُ ذرَّاتُه كالشَّرر
ولا دِعَةٌ في دوام طوافٍ ... طوافَ الصَّبا في رياض الزَّهَر
تجمَّعْنَ في صدريَ المستنير ... ودعْنَ البداةَ ودَعْنَ الحضَر

- ٢ -

تداعى الأشعةُ من كلِّ صَوبٍ ... إلى الشمس تبغي لديها قرارا
وصاحت : تعذَّر في الغرب نورٌ ... دُخانُ المصانع يكسوهُ قارا
وفي الشَّرق قلبٌ بصيرٌ ولكن ... كعالَم غيبٍ بصمتٍ توارى
أنوارَ العوالم ! لا تهجُرينا ... إلى نور صدركِ آوى الحَيارى[3]

- ٣ -

شُعاعٌ جريءٌ له نظرةٌ ... كنظرةِ حوراءَ تغزو الضميرْ
ولا يستقرُّ على حالةٍ ... ترى زئبقاً في ضياءٍ يمورْ
يقول : أُضيءُ على الشرق حتى ... أرى ذرَّةً كشموسٍ تنيرْ

---

(١) لعلَّ الشاعر يعني نفسه بشعاع الأمل . الشمس ينست من إضاءة في الشرق أو الغرب ، فدعت أشعتها إليها ، فجاءت الأشعة إلى صدر أمها معترفة بيأسها إلا شعاعاً جريئاً يقول للشمس : ذريني أضيء الشرق ، ولا تيأسي ، فكل ليلٍ إلى صباح . الشاعر يرى في أمله ودعوته في الشرق هذا الشعاع .

(٢) النشر : المنتشر المتفرق .

(٣) الخطاب للشمس .

وأجلو عن الهند هذا الظلام ... فأوقظُ نُوَّامها للنُّشورْ
ففيها من الشَّرق آماله ... « وإقبالها » بالدُّموع مَطير
تضيء بها أعين النيِّرين ... حصاها يَلوح كدرٍّ منير
وكم عاش في أرضها غائصٌ ... يرى كالضَّحاضِحِ لجَّ البحور
فأعوزَ أعوادَها عازفٌ ... وكانت تَهيجُ الجَوى في الصدورْ
ينام البَرَهْمَنُ في سُدَّةٍ ... لدى مَوْثَنٍ والزَّمانُ يسيرْ
ومسلمها خِدْنُ محرابه ... ينوحُ ومن قَدَرٍ يستجيرْ
فلا يحزُنَنكِ من الشرق نومٌ ... وفي الغرب لا ترهبنَّ الشُّرور[1]
قضت فطرةُ الله أن تُبْدِلي ... بليلِ الظلام صباحَ السُّفور

***

أمل[2]

لستُ من أجنادِ حربٍ ... لا ولا ربُّ لواءْ
بيد أني في صروف الدَّهـ ... ـر ثَبْتٌ في اللقاءْ
عُدَّتي ذكرٌ وفكرٌ ... وهُيامٌ وغناءْ
لست أدري أهو شعر ... أم سواه ذا العطاءْ[3]
إنَّ عبد الحق يُزهَى ... في محيَّاه ضياءْ
من جلالِ ظلِّ فكرٍ ... الكون منه في امتلاء
ليس دون الكفر إنْ لم ... يكُ كفراً ذا البلاء
أنْ يُرى بالحاضرِ المشـ ... ـهود للحرِّ سِباءْ[4]

---

(١) الخطاب للشمس .
(٢) كتب في بهوبال ـ رياض منزل (دار السيد راس مسعود) .
(٣) هو يدري أنَّه وهبه الذكر، والفكر، والهيام، والغناء، ولا يدري أهذا شعر أم شيء آخر.
(٤) ليس أقل من الكفر أن يأسر الحرُّ ما يراه ويشهده ، فيقيد به فكره وعمله . فالحرُّ =

لا تـذب غمَّـاً فكـم فـي الـدهـ ـر أدوارٌ وِضـاءْ
كـم نجـومٍ حـادثـاتٍ سـوف تجلـوهـا السَّمـاءْ

* * *

البصيرة

لم تُخفِ هذي الكائنات ضميرَها شـوقُ الظُّهـور يَثـورُ فـي ذرَّاتهـا
إنْ صـاحـبَ النظَـراتِ شـوقُ بصيـرةٍ تتبـدّلِ الأيـامُ فـي جَلَـواتهـا[1]
من ذي البصيرة في الليالي قد غدا أنبـاء مـن خضعـوا لهـا سـاداتهـا
مِـنْ ذي البصيـرة لـي جنـون ثـائـرٍ عَـرفـتْ بـه الـذَّراتُ طيَّ فـلاتهـا[2]
هـذي البصيـرةُ لا تيسَّـر لامـرىءٍ تَخْـزَى القلـوبُ بنفسـه وسِمـاتهـا

* * *

إلى أهل الفنِّ[3]

رأيـت الكـواكـبَ لَمْحـاتِ نـورٍ وذاتُـك بـالعِشْـق رَهـنُ خلـودْ

= لا يقيده ما يسمى « الأمر الواقع » .

(١) يعني أنَّ نظرة البصيرة تنفذ إلى حقائق الأشياء فترى الدُّنيا على غير صورتها الظاهرة .

(٢) الجنون : هو الحماس والإقدام . ويعني الشاعر أنَّ بهذه البصيرة ثار هذا الجنون في نفسه ، فهذه الذرات التي تطوي الفلاة تعلمت من جنونه طي الفلاة . والشاعر يقرن الجنون بالفلاة إشارة إلى قصة مجنون ليلى (تراجع المقدمة في معنى الجنون) .

(٣) مذهب الشاعر أنَّ الفنَّ ينبغي أن يحرر من محاكاة الطبيعة ، وينبغي أن يصور « ذات » صاحب الفن . فالكواكب لمحات من نور لا ثبات لها ، و« الذات » العاشقة خالدة . وضمير الإنسان لا تحده الألوان . والذات تخلو للذكر والفكر ، وتظهر للشعر والإنشاد غير خاضعة لهذا العالم . والرُّوح المستعبدة فيها عبد ، والروح المقدرة نفسها تسيطر على كل شيء .

تعالى ضميرك عن كلِّ لونٍ فعفتَ من اللَّونِ كلَّ القُيودْ
وغيبةُ ذاتك ذكرٌ وفكرٌ ومحضرُها شعرُها والنَّشيدْ
إذا أضنَتِ الروحَ آلامُ رقٍّ ففنُّك عبدٌ رهينُ سجودْ
وإنْ عرفتَ قدرَها كنتَ حقاً على الجنِّ والإنس ربَّ الجنودْ

* * *

قطعة

ثائِرَ الموج كم لدى البحر درٌّ وعلى السَّاحل الصَّموت غُثاءُ[1]
في شَراري سنا البروقِ ولكنْ رَطبة العُود هذه القَصباءُ[2]
ولكَ الوقتُ والتصرُّف فيه ليس يا غِرُّ ! للنُّجوم غَناءُ
قد رأينا عجيبةً من جنونٍ فيه رَفْو لما يشقُّ القضاء[3]
إنَّما الكامل الخلاءةِ شهمٌ دون مَنِّ الكروم فيه إنْشاء[4]
وإلى اليوم حانةُ الشَّرق فيها خمرةٌ للشُّعور منها جَلاء[5]
يئس المبصرون من أمم الغـ ـرب ففيها بَواطنٌ سَوداء

* * *

---

(١) الدرُّ في ثورة الموج ، وليس في سكون السواحل إلا الغثاء ، فالحياة جدٌّ وكدٌّ ، لا سكون .

(٢) شراري يحرق كالبرق ، ولكن هذه النفوس كالقصب الرَّطب لا تشتعل .

(٣) بعض الجنون يغير ما يظنه الناس قضاءً ، فهو يرفو ما يمزقه القضاء ، أي يصلح في هذا العالم مذللاً الطبيعة ، وما يحسبه الناس قضاء وقدراً في هذا الكون .

(٤) رجل نشوان بفكره وعمله مقدم بنفسه في غنى عمن يؤثر فيه سكران بغير خمر .

(٥) الخمر المؤثرة تحجب الشعور ولكن خمرة الشرق لا تؤثر فهي تزيد الشعور جلاء .

الوجود

أنتَ تحت الشَّمس تَمضي كشرارِ ... لستَ تدري ما مَقاماتُ الوجودْ
ليس في فنِّك للذات بناءٌ ... ويلُ تصوير وشدوٍ وقصيدْ
ليس في المكتب والحانة إلا ... درسُ إفناءٍ به الذات تبيدْ
ليت شعري هل تعلمتَ وجوداً ... لحياةٍ ودوامٍ وخلودْ

***

الغناء

صاح من أين لناي نشوةٌ ؟ ... صَوتُ عودٍ ذاك أم من قلب حيّ ؟
صاح ما القلبُ ؟ ومن أين له ... قوةٌ سَكرى تحدَّتْ كلَّ شيّ
ولماذا نظرة منه سرت ... مثلَ ريحٍ صرصرٍ في تَخت كَي[1]
ولماذا ذلك السرُّ له : ... من حياةٍ فيه يحيا كلُّ حيّ[2]
ولماذا كلَّ حينٍ مبدلٌ ... وارداتٍ زُمراً تهفو إليّ
ولماذا صاحبُ القلب ازدرى ... ملكَ روم ومُنَى شامٍ و ريّ
إنْ وعى للقلب رمزاً مطربٌ ... طُوِيَ الفنُّ له أسرعَ طيّ[3]

***

---

(١) كي : كيكاوس أحد ملوك الفرس القدماء ، وفي الأساطير أنه كان له تخت يطير به .
(٢) لماذا خص القلب بهذا السر : أنَّ بحياته تحيا الأمم .
(٣) إن عرف المطرب رمز القلب ، فأرسل في نغماته خفقات القلوب ، طوى مراحل الفن ، فبلغ غايته دون عناء .

النسيم والنَّدى

النسيم :

لم أرقَ في فلك النُّجوم وإنَّني ... في شقِّ أثواب الأزاهر أعملُ
وأسيرُ عن وطني غريباً مجبَراً ... في مسمعي شدوُ البلابل يثقلُ
قل لي ، فقد أعطيتَ سرَّ كليهما ، ... المرجُ أم فلكُ الكواكبِ أجملُ[1]

النَّدى :

لو لم تكن في المرج رهنَ هشيمه ... لرأيته سرَّ الكواكب يحملُ[2]

* * *

أهرام مِصر[3]

شادت الفِطرة كُثبانا لها ... في سُكونٍ من يَباب قد وقَد
روَّع الأفلاكَ فيه هرمٌ ... أيُّ كفٍّ صوَّرت هذا الأبد !
مِنْ إسارِ الكون حرَّرْ صنعةً ... صائدٌ ذو الفن أم صيداً يعدّ[4]

* * *

---

(١) و(٢) يسأل النسيم الندى وقد هبط من السماء إلى المرج ، أيهما أجمل . فيقول الندى لو لم تتعلق بالهشيم ، وتقف عند المظاهر لرأيت في المرج سرَّ الكواكب ، وما وجدت فرقاً بين السماء والمرج .

(٣) في هذه الأبيات يشيد إقبال بالإنسان وقدرته على الإبداع ، ويشير إلى ما قال في أبياتٍ أخرى من أنَّ صاحب الفن لا يحاكي الطبيعة ، بل يسيطر عليها ، ويؤثر فيها .

(٤) لم يحاك باني الهرم كثبان الرمال ، بل شاد هذا الأثر الخالد ، فحرر الصنعة من أسر الخليقة ، فإن صاحب الفن صائد لا صيد ، يأسر الخليقة ولا تأسره .

مخلوقات الفن

ـد رأى ذو بصـرٍ سـرَّ الـذَّات وجـلا الفـنُّ لعيـنِ جَنَّـاتِ[1]
ـا بـه الـذَّات ولا الكـون يُـرى فهـو مـن جهـدِ حيـاة فـي نجـاةِ[2]
ـسَ الكـافـرُ مَـن أصنـامـه مـن حُطـام لمنـاةٍ والـلاتِ[3]
ـالـكٌ صلَّـى عليـه فنُّـه في ظـلام اللَّحـد يـرنـو للحيـاةِ[4]

***

إقبال

للروميِّ[5] في الخلدِ سنائي : لا يـزالُ الشـرق بـالتقليـد يُـؤسَـر
ـلَ منصـور : ولكـنْ قـد سمعنـا أن سـرَّ الـذات أفشـاه قلنـدرُ

***

الفنونُ الجميلة

ـراتُ الآفـاق مُتعـةُ عيـنٍ سرِّحوا العينَ يا أولي الأبصارِ

ذات الإنسان أو مركز وجوده (خودي) في فلسفة إقبال .
ليس في هذا الفن الذات ، ولا فيه عالم الصباح والمساء ، فهو فرار من جهاد الحياة .
المقلد في الفن يتخذ أصناماً من بقايا أصنامٍ محطمةٍ كانت في الأعصر الخالية .
في الأصل : أنت ميت وفنك أمام جنازتك .
جلالُ الدين الرومي أكبرُ شعراء الصُّوفية ، ومجدُ الدين السَّنائي طليعةُ شعراء الصُّوفية الكبار ، ومنصورُ في لغة صوفية الفرس والهند هو الحسينُ بن منصور الحلَّاج الصُّوفي المعروف . والشاعر يتخيل : أنَّ السنائي قال في الجنة للرُّومي : لا يزال الشرق في أسر القديم . فقال الحلاج : قد ظهر مجذوب أفشى للناس سرَّ الذات فهو حري أن يبدل الحياة في الشرق .

غَيْرَ أنِّي أقول : ما نظراتٌ لا تجلِّي كوامنَ الأسرارِ[1]
مقصدُ الفنِّ في الحياة لهيبٌ أبديٌّ فما وَميضُ الشَّرارِ ؟[2]
قطرُ نَيسانَ ! ما اللآلىءُ إنْ لم تتلاطمْ بها قلوبُ البحارِ[3]
ما نسيمُ الصَّباحِ في الشِّعر واللَّحن إذا ما أذوَى سنا الأزهارِ[4]
ليس إلا الأعجازُ يحيي ففنٌّ ليس ضربُ الكليم فيه ، عواري[5]

* * *

صُبْحُ المرج[6]

الزَّهرة :

وافدَ الأفلاك ! هل خِلْتَ بعيداً موطني ؟ لا إنَّه غيرُ بعيد

النَّدى :

من يَطِر ما بين أرضٍ وسماءٍ يتبينْ أنَّه غيرُ بعيد

---

(١) إن لم تنفذ نظراتُ صاحب الفنِّ إلى حقائق الأشياء ؛ فما هي بمجدية .
(٢) الفنُّ يصوِّر لهيب الحياة الأبدي ، فلا قيمة للفنِّ الذي يخرج شراراً لا يلبث أن يُطفأ .
(٣) قطر المطر في نيسان يُخلق منه الدرُّ في الصَّدف . يقول الشاعر : يا قطر نيسان ! ما قيمة الدرِّ الذي لا يضطرب له قلبُ البحر . يعني : أن بدائع الفن ينبغي أن يجيش لها قلب العالم .
(٤) إنْ كان نسيمُ الصبح المتمثَّل في إنشاد الشاعر ولحن المغني يذبلُ الزَّهرَ في الرَّوضة ولا ينضِّره فأيُّ نسيمٍ هو ؟! .
(٥) حياة الأمم بالإعجاز ، فالفنُّ الذي لا إعجاز فيه عاريةٌ لا دوام لها .
(٦) خلاصة ما يؤخذ من هذه الأبيات أنَّ الإنسان ينبغي أن يعمل في هذه الأرض غير غافلٍ عن عالم الغيب ، كضوءِ الصُّبح يُغشى السهول والجبال ولكنَّه موصول بالفلك ، وعالم الغيب والشهادة ليسا متباعدين كما قال النَّدى : إنَّ الطيران يُعلِّم أنَّ الأرض ليست بعيدةً من السماء .

الصُّبح :

أقبلنْ في الرَّوض كالصُّبح رفيقاً ... ليس يؤذي وطؤه قطرَ النَّدى
واحضِنِ الأجيالَ والبيدَ ولكنْ ... من عُرا الأفلاك لا تحللْ يدا

* * *

الخَاقَانِي[1]

ذا صاحبُ تحفةِ العراقَيْن ... ذو القلب يراه قرَّة العَين
تنشقُّ لفكره السُّتور ... الحُجْبُ جميعُها تُنير
يجتاز بعالم المعاني ... لا يسمعُ قولَ : ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾[2]
فاسأله بذلك التُّراب ... والدَّهرُ يجيشُ في عُباب[3]
ذا مَحرَم عالِم الثَّوابِ ... كم دلَّ بموجَز الخطاب[4] :

---

(١) شاعرٌ فارسيٌّ كبيرٌ ، توفي في تبريز سنة ٥٨٢هـ . وله من الكتب « تحفة العراقين » . سجل فيها ما رأى في العراقين العربي والعجمي حينما مرَّ بهما في طريق الحجِّ ، وله ديوانٌ ، ومنظومةٌ اسمها « هفت إقليم » (الأقاليم السبعة) .
وهذه الأبيات جاءت في الأصل في القافية المزدوجة وعلى وزن = مفعول مفاعلن فعولن . وهو ضربٌ شائع في الشعر الإسلامي الشَّرقي وهو مشتقٌ من الأوزان العربيَّة ، ولم أجده في الشعر العربي إلا في أبيات لبهاء الدين زهير أوَّلها :

يا منْ لعبت به شمولُ ... ما ألطفَ هذه الشمائل

وقد ترجمتها على قافيتها ووزنها لأزيدَ في شعرنا مثالاً في هذا الوزن إلى أبيات زهير .

(٢) ينكشف له عالم المعاني ، فلا يسمع منه ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وهذا رمز إلى الآية في قصة موسى : ﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ﴾ .

(٣) اسأله عن هذا العالم الأرضيِّ وعن حوادث الدَّهر . وفي القرآن الكريم ﴿ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾ [الفرقان : ٥٩] أي اسأل عنه .

(٤) المحرم : المطلع على السرِّ . واستعملها شعراء الفرس وغيرهم فأقررتها في العربية وليست بعيدة من المعنى الأصلي .

« نـاهيـكَ بشـرٌ هـذا العـالـمِ إبليـسُ ثـوى ومـاتَ آدم »[1]

***

الرُّومي[2]

ما زال طَرفُك في خَلْطٍ وفي سِنَةٍ وعنكَ ذاتُك في الأسرارِ لم تَزَلِ
ولـم تـزلْ فـي صـلاةٍ لا قيـامَ لهـا وبالضَّراعة عزَّ الرُّوح لم تَصِلِ[3]
ومِـزهـرُ « الـذَّات » أوتـارٌ مقطَّعـةٌ ما زلتَ عن نغمةِ الرُّوميِّ في شُغُل

***

الجدَّة[4]

إنْ صدقَتْ نفسُك في الدَّهر النظرْ تُنـوِّر الأفـلاكُ منـكَ فـي البُكَـرْ
وتستضـيءُ الشَّمـسُ منـك بـالشَّـرر وينجلـي قـدرُك فـي سيمـا القمـر
والبحـرُ يلقـى منـك مـوجـاً ذا دُرر وتستحـي إعجـازَ صُنعـك الفِطَـر[5]

---

(١) حسبُك تعريفاً بهذا العالم أنَّ آدم مات ، وبقي إبليس أي : بقيت نزعاتُ الشرِّ في هذا العالم . فهو عالمُ محنةٍ وجهاد . وهذا البيت مضمَّن من شعر الخاقاني .

(٢) هو مولانا جلال الدين الرُّومي صاحب المثنوي ، والشاعر يتَّخذه إماماً ، ويشيد بذكره في شعره .

(٣) الصلاة قيامٌ وسجودٌ ، يقول الشاعر : إنهما رمزُ الدلال والضَّراعة (ناز ونياز) أي : الخضوع والسِّيادة ، ولكنَّ بعضَ الناس صلاتهم سجودٌ بغير قيامٍ . . . إلخ .

(٤) يرى الشاعر أنَّ الإنسان لا ينفذ ببصره إلى حقائق الأشياء . يقول : إنك إن صدقت النظر فيما حولك ؛ رأيت دنيا أخرى جديدةً غير التي تراها ، وتغيَّر إدراكك هذا العالم ، وتبيَّن أنه مسخرٌ لك .

(٥) تستحي الخليقة من صنعك المعجز ، تراه أحسن منها .

تخـذتَ أفكـار الـورى مـرآتَـك فكيـفَ لا تبلـغُ حتَّـى ذاتَـك[1]

***

مِرزا بَيْدَل[2]

ذي سمـاءٌ وجبـالٌ وفِجـاجْ ذاك حقٌّ أم عيونٌ في اعوجاجْ ؟
فـرَّق الآراءَ إثبـاتٌ ونفـيٌ أهيَ دنيا أم خداعٌ في الحِجاجْ ؟
عقـدةٌ قـد حلَّهـا يبـدلُ حقـاً أعجـزتْ مـنْ قبلـه كـلَّ عـلاج :
« ما بدا ذا المراجُ لو في القلب وُسعٌ بان لونُ الخمر منْ ضيق الزُّجاج »

***

الجلال والجمال[3]

حسبـي كمـالًا قـوةٌ مـن حَيـدرٍ وكفـاك مـن أفـلاطُـنَ الإدراكُ

---

(١) إنَّك استعرت أفكار الناس فلم تبلغ في هذه الحياة حتى ذاتك ، فقد أضعتها بالتقليد .

(٢) من شعراء إيران ، ذهب إلى الهند أيام السلطان شاه جهان ، فأكرم السلطان وفادته ، وهو شاعرٌ صوفيٌّ له ديوانٌ كبيرٌ يغلب فيه التعمُّق وتكثر الدَّقائق .
وقد أعجب إقبال بفكرةٍ في بيتٍ لبيدل ، فبنى عليه هذه الأبيات ، وهي : أنَّ هذا العالم الحسِّي لا خطر له ، بل لا وجود له إلا عند من ضاق عن إدراك الحقائق الكبرى التي يختفي معها هذا العالم . كالخمر يُظهر لونها كأس الزجاج لضيقها . وترجمة البيت في النثر :
« لو اتَّسع القلبُ ما ظهر هذا المرج ، خرج لون الخمر من شدَّة ضيق الزُّجاج » .

(٣) الشَّاعر من المعجبين بالقوَّة ، الدَّاعين إليها ، وهو يدَّعي هنا الإجمال بغير جلالٍ ، يرى الكمالَ في شجاعة عليٍّ لا في خيال أفلاطون ، ويرى سجود السماء للقوة جمالًا ـ وقد تخيَّل الشعراءُ أنَّ انحناء السماء في رأي العين سجودٌ ـ والنغمةُ التي لا قوَّة فيها نفخةٌ ضائعةٌ ، بل لا يحبُّ أن يجازى إلا بنارٍ شديدةِ الالتهاب .

وأرى جمـالاً فـي بهـاءٍ أن تُـرى ... فـي سجـدةٍ للقـوَّة الأفـلاكُ
ولَنغمـةٌ مـن دون نـارٍ نفخـةٌ ... مـا الحسـنُ إلا بـالجـلال يُحـاكُ
لا أرتضـي نـاراً لجـزء ولـم تكـن ... وهَّـاجـةً ولهيبُهـا درَّاكُ

* * *

المصوِّر[1]

قلّـد الغـربَ فـنُّ عُجْـم وهنـدٍ ... عـمَّ هـذي البـلادَ مـوتُ الخيـال
شفَّنـي الغـمُّ أن بِهـزادَ عصـري ... يُفقـد الشـرقَ بهجـةَ الآزال[2]
يـا خبيـراً بفنِّـه فيـه تمَّـت ... صنعـةُ العصـر والعصـورِ الخـوالـي
كـم تَـرى مـن خليقـةٍ وتُـريهـا ... أرِنـا الـذَّاتَ فـوق هـذي المجـالـي

* * *

الغناء الحلال[3]

تفتـح القلـبَ نغْمـةٌ مـن غنـاءٍ ... أيَّ فتـحٍ والقلـبُ رهـنُ هُمـودِ ؟
فـي صُـدور الأفـلاك لحـنٌ خفـيٌّ ... صـاهـرٌ حـرُّه نجـومَ الـوجـودِ

---

(١) يرى الشاعر أنَّ المصوِّر وكلَّ ذي فنٍّ ينبغي أن يُظْهِرَ ذاته فيما يصوِّر لا أن يحاكي الطبيعة ، وأنَّ المحاكاة موت .

(٢) بهزاد : مصورٌ فارسيٌّ مشهور نبغ أيام الدَّولة الصفوية ، والشاعر يغتمُّ لأنَّ بهزاد عصره يقلد الغرب ، فيفقد الشرق البهجة القديمة .

(٣) يرى الشاعر أنَّ الغناء وكلَّ لحنٍ يحلُّ إنْ كان فيه قوةُ الذات وحرقة الحياة ، ويَحْرُمُ إن أضعف الذات ، ولم يقبس من الحياة ناراً . الغناء يفتح القلب فكيف يفتحه إن أماته ؟! وفي الأفلاك ألحان طبيعية تذيب النُّجوم ، وتبرىء الإنسان من الخوف والغم ، وترفع النفس من العبودية إلى السيادة . . إلخ . والنغمة الحيَّةُ التي يُحلُّها فقهاءُ الذات لا تزال تنتظر مطرباً يعلنها .

يهجرُ النـاسَ منـه خـوفٌ وغـمٌّ إيـازٌ يسمـو إلـى محمـودِ[1]
تيـهُ هـذي النُّجـوم يفنَـى ولكـن أنـت تبقـى ونغْمـة التَّـوحيـدِ[2]
قـد أحلَّـت شـريعـةُ الـذَّات لحنـاً لـم يـزل فـي انتظـار شـادٍ مُجيـدِ[3]

* * *

الغناءُ الحرام

مـا بـذكـرى مـن التصـوُّف وَجـدٌ أو بـرأيـي ثـوابُهـم والعـذابُ
قـرَّب الله مـذهبـي مـنْ فقيـهٍ عُـرِفـت عنـه سُنَّـةٌ وكتـابُ :
« إنْ سَرَت في اللحون دعوةُ موتٍ حَـرُم النـايُ عنـدنـا والـرَّبـابُ »[4]

* * *

النَّافُورة

لا يُطَيِّبنـي مسيـرُ النَّهـرِ مطَّـرداً مُسـايـراً تُـربَـه جنبـاً إلـى جنـبِ
دع ذاك ، وانظرْ إلى نافورةٍ بَسَقتْ تُصَعِّـدُ المـاء منهـا قـوةُ القَلْـبِ[5]

* * *

---

(١) السُّلطان محمود بن سبكتكين وخادمه إياز .
(٢) يشبه عالم الكواكب بالتيه ، ويقول : إنه يفنى ، ويبقى الإنسان ونغمته الموحدة .
(٣) اللحن الذي أحلَّته شريعةُ الذَّاتِ ، وهو الذي يحيي النفوس ويقويها ، لم يظفر به أحدٌ ، فلا يزال ينتظر مطرباً .
(٤) هذا مذهبه : الألحان التي تميت النفوس حرام .
(٥) لا يُعجب الشَّاعر بالنهر يساير الأرض ، بل يُعجب بنافورةٍ قويةٍ تقذف الماء عالياً في الهواء .

الشاعر[1]

في غابة الشرق نايٌ يبتغي نَفَساً ... يا شاعرَ الشَّرق هل في صدرك النَّفَسُ؟
من كانَ في ذاته من رقّةٍ خَورٌ ... فقلْ له من لُحونِ العُجْم يَحترِسُ
إناؤها من زجاجٍ كان أو خزفٍ ... اجعل بخمرك سيفاً لمعُه قَبَسُ
لم تبصر الشمسُ من دُنيا يُخال بها ... مجدٌ بغير الجلاد المرِّ يُلتمَسُ
طُورٌ جديدٌ ، وبرقٌ كلَّ آونةٍ ... لا قرَّب اللهُ للعشاقِ ما التمسوا

* * *

شعر العجم

كم بشعر العُجْم من سِحْر ولكنْ ... منه سيفُ الذَّات ذو حدٍّ كليلْ
صَمتُ طيرِ الصُّبح أولى من غِناء ... إن سرى باللَّحن في الرَّوض ذبولْ
ليس ضرباً ما يشقُّ الطَّودَ لكنْ ... ليس منه عرشُ بَرويز يميلْ[2]
يَنْحِتُ العصرُ أيا إقبالُ ! صخراً ... فاحذَرنْ من كلِّ ما يُبْدي الوَذيل[3]

* * *

---

(١) ينفرُ إقبالُ من شعر الرَّخاوة والذلَّة ، ويقول هنا : من ضعفت « ذاتهم » فليحترسوا من ألحان العجم ، فهي تدعو إلى الرقَّة والترف .
ولا بدَّ للشعر أن يكون في حدَّة السيف ، ملائماً لمعركة الحياة مهما تكن صورته ، كالخمر في زجاجةٍ أو صراحيةٍ ، ينبغي أن تكون محرقةً . وليس لشوق الشاعر غاية ففي كل حين طورٌ جديدٌ ، وبرقٌ للتجلِّي جديد .

(٢) ليس ضرباً ما لا يزلزل عرش برويز وإن شقَّ الجبل . والإشارة إلى قصة فرهاد الذي شقَّ طريقاً في الجبل ، ولم يظفر بشيرين ، كما وعده برويز .

(٣) الوذيلُ : جمع وذيلة ، وهي المرآة . والشَّطر فارسيٌّ من شعر العراقي . ومعناه : احذر من كلِّ ما يبين في المرآة « أي هذا عصر حقائق لا خيالات . ينحت الصخور ، ويحطم كلَّ ضعيفٍ ، فكلُّ ما بدا في الزجاج فلا تركن إليه » .

أصحابُ الفنِّ في الهند

خيُّلهُم جَنازةُ كلِّ عِشْقٍ ... وظُلمةُ فكرهم للحيِّ قَبرُ
ومَوثَنُهم به نقشُ المنايا ... وليس لفنِّهم بالعيش خُبْرُ[1]
نيمُ الرُّوحَ في إيقاظ جسمٍ ... ودون المجد يُسدَل منهُ سِترُ
سخِّر للأنوثة كلَّ شيءٍ ... لهم قَصصٌ وتصويرٌ وشِعرُ[2]

* * *

الرَّجل العظيم

و في الحب عميقْ ... وهو في البُغْض عميقْ
هره فروقُ عبادِ الله ... بَرٌّ وشفيقْ
شَّأته ظلمةُ التَّقليد ... بالنَّاس تَحيقْ
ير أنَّ الطَّبع بالإبـ ... ـداع والخَلق خَليقْ
و في المَجْمَعِ خالٍ ... من الحَشدِ طليقْ
ثلُ شمع الحفل ؛ في الحفل وحيد ورفيقْ[3]
ثلُ شمس الصُّبح ؛ فِكرٌ ... فيه نُورٌ وبَريقْ
فظه حرٌّ يسيرُ ... لكنِ المعنى دقيقْ
ظرٌ فيه سديدٌ ... عن بني العصر سحيقْ

---

١) الموثن : معبد الأوثان .

٢) الفن الهندي بالشهواتِ الجسمية ، ويُفتن في تصويرها ، فهو يوقظ الجسم ، وينيم الرُّوح ، ويسخِّر كل شيءٍ للأنوثة .

٣) يكون في جمعٍ من الناس وكأنه وحده ، له فكره ، ونظره . مثل الشمعة في الحفل رفيقة الحاضرين ، ووحيدةٌ بحرقتها ونورها .

ليـــس يـــدري أيُّ حـــالٍ فيـــه أشيـــاخُ الطـــريـــق

***

عالَم جديد[1]

مَنْ كانَ حيَّ القلب في الدُّنيا فما يخفي عليه من القضاء ضميرُهُ
تجلـو لـه رؤيـاهُ كـونـاً مُحـدثـاً بِـدعَ المثـالِ يَـروقُـه تصـويـرُهُ
فـإذا جـلا صـوتُ الأذان منـامَـه شـادَ الـذي فـي حُلمـه تعبيـرهُ
ولهَيكـلُ الـدُّنيـا الجـديـدةِ طينـهُ هـذا الضئيـلُ ، وروحهـا تكبيـرهُ

***

خلقُ المعاني

خلقُ المعاني مِن الخلاّق مَوهبةٌ لكـنَّ للفـنِّ فـي الفنَّـان إجهـادا
مِنْ حُرْقَةٍ في دَمِ الباني ، مشيَّدةٌ حاناتُ حافظٍ أو زُونات بهزادا[2]
مـا جـوهـرٌ يتجلَّـى دون مَجهـدةٍ منْ ومضةِ الفأس نارت دارُ فرهادا

***

---

(١) الرَّجل العظيم يرى في منامه أو خياله عالماً جديداً ، فيعمل عزمه ، فلا يستعصي عليه أن يحقق في عالم الحقائق ما رأى في الرؤيا أو الخيال .
وهذا العالمُ الجديد الذي يخلقه ناشئٌ من نفسه ، فهيكله : جسمه الصغير ، وروحه : تكبيره ، وإيمانه ، وعزمه .

(٢) حافظ الشيرازي الشاعر الفارسي الكبير ، وحاناته : شعره . وبهزاد مصور فارسي مشهور عاش في أيام الدولة الصفوية . والزونات : جمع زونة وهي معرض الأصنام ، أو الدُّمى ، يضرب بها المثل في الجمال والزينة .

المُوسِيقا

دلَّ على بردِ دَمِ المُغنِّي ... لحنٌ له الوجوه لا تُنيرُ[1]
أنفاسُ زامرٍ سُمومُ لَحنِ ... إنْ كان لم يَطْهُرْ به ضميرُ[2]
بالشَّرق والمغرب في رياضِ ... من الشقيقِ شاقني المسيرُ
فما مررتُ بينها بمرجِ ... شقَّت به جُيوبها الزُّهورُ[3]

***

لذَّةُ النَّظر

أيُّ ذاتِ حَوَى فتى الصينِ مَن قا ... لَ لجلاده أمام الحِمام :
منظرٌ رائقٌ ، تمهَّلْ ، تمهَّلْ ... لأرى لحظةً وميضَ الحُسامِ[4]

***

الشِّعر

لم أدرِ سرَّ الشِّعر إلا نكتةً ... سِيَرُ الشُّعوب تُبينُها تفصيلا

---

(١) اللَّحن الذي لا تنير له وجوه السَّامعين دليلٌ على برود نفس المغني ، وخمود عاطفته .

(٢) لا بدَّ للمطرب من طهارة الضَّمير لتكون ألحانه صدى الضمير الطاهر ، وإلا فأنفاسه في اللحن سمٌّ للسامعين .

(٣) زهور الشرق والغرب لم يهج بها الطرب فتمزق جيوبها كما يفعل من يغلبه الطرب من حزنٍ أو فرح ـ يعني : لم يظهر المطربون أسرار النفس ، ويبدو مكنون الضمير الإنساني ، ولا تزال « الذات » محجوبةً .

(٤) رجلٌ صينيٌّ قام أمام الجلاد والسيف مصلت فلم يشغله هذا المقام عن الإعجاب بوميض السَّيف ، فقال للجلاد : أمهلني لأمتِّع النفس بهذا المنظر . فهذا يعجب به إقبال أيَّ إعجاب ، ويرى فيه ذاتاً كاملة .

الشِّعرُ فيه من الحياة رسالةٌ أبديةٌ لا تقبَلُ التبديلا
إنْ كانَ من جبريلَ فيه نغمةٌ أو كانَ فيه نفخُ إسرافيلا[1]

* * *

الرَّقص والمُوسيقا

إنَّ للشعر بهجةٌ ضاء منها روحُ جبريل والرَّجيمُ اللعينْ
ومن الموسيقا ابتهاجٌ شوقٌ وكذا الرَّقص نشوةٌ وفُتون
قد سمعنا في الصِّين قولَ حكيم فيه أفشى مخبّآت الفنون :
إنَّ للموسيقا من الشعر رُوحاً ومن الرَّقص جسمُها في العيون

* * *

ضبط النفس

دأبُ أهلِ الزمان شكوى الزمانِ ليس للحرِّ آهةٌ في طِعانِ
قد أسرَّ النجوى إليّ عليمٌ منْ شيوخِ القلوب والعِرفانِ :
إنَّ كَظم النُّواح شيمةُ ليْثٍ ومن النَّوحِ شيمةُ الثُّعْلبانِ

* * *

الرَّقص

دعْ لأهل الغرب رقصاً بجسومٍ إنَّ رقصَ الرُّوح من ضَرْبِ الكليمْ
فبهذا الرَّقصِ سُلطانٌ وفقرٌ وبذاك الرَّقص همٌّ لا يَريمْ

* * *

---

(١) الشعر يحمل رسالة من الحياة أبديةً إن كان جميلاً هادياً ، كنغمات جبريل (وجبريل رسول الوحي) أو كان فيه صعقٌ وبعثٌ ، كصوت إسرافيل .

القسم الخامس

سياسيَّاتُ المشرقِ والمغربِ

بھٹکا ہُوا راہی مَیں، بھٹکا ہُوا راہی تو
منزل ہے کہاں تیری، اے لالۂ صحرائی!

انقلاب

أبمشـــرقٍ أو مغـــربِ نـارُ الحيـاة ونـورُهـا
فهنـا تمـوتُ ذواتُهـا وهنـاكَ ماتَ ضميرُهـا
وأرى القلـوبَ لثـورةٍ مِـلءُ البـلادِ زفيـرُهـا
فلعـلَّ دنيـاكَ القـديمـةَ للممـاتِ مَسيـرُهـا

***

تملُّق[1]

جهلتُ أمورَ الناس غيرَ مجرِّبٍ ولكـنَّ ربَّ القلـب للغيـب يَشْهَـدُ
فقـلْ لـوزيـرٍ مـا بـدا لـك مـادحـاً فـذانـك دُستـورٌ وعهـدٌ مجـدَّدُ
إذا قـال : صقـرُ الليـلِ للبـومِ مـادحٌ فهـل ذاك حـقٌّ أو دِهـانٌ يـردَّد[2]

***

المناصب[3]

سِحرُ الفرنجة قد أحاط بمؤمنٍ يا ويحَ عيني قد هَمتْ عَبَراتُها

---

(١) العنوانُ في الأصل (خوش آمد) وهي عبارة فارسيَّة بمعنى مرحباً أو أهلاً وسهلاً . ومعناها بالأردوية التملُّق . وقد كتب إقبال هذه الأبيات حينما وضع الإنكليز نظام الاستقلال الدَّاخلي لولايات الهند ، وكثرت مناصب الوزراء فيها .

(٢) إذا قال أحد المادحين للبومة وهي لا تطير إلا ليلاً إنها صقراً لليل فهل هذا حقٌّ أو ملق ؟

(٣) هذه الأبيات قيلت في الأحوال التي أنشئت فيها الأبيات السَّابقة .

فلعلَّ منصِبكَ الرفيع مباركٌ فالذَّاتُ مِنْ جَرَّاه حانَ مماتُها
هذي القضيةُ معضِلٌ إخفاؤها وضَحتْ لكلِّ مفكِّرٍ آياتُها :
« لا شِركَ في حكمٍ لعبدٍ إنَّما شُريَتْ عقولُهُمُ وخابَ شُراتُها »[1]

* * *

أوربَّة واليهود[2]

نظامٌ ومالٌ وعيشٌ رغيدٌ وظُلمةُ صَدرٍ لها القلبُ يَقْلي
دخانُ المصانع في الغرب داجٍ فواديه ليس بأهل التَّجلِّي
رأيتُ حضارتَه في احتضارٍ تموت اعتباطاً ، وما الموت يُملي[3]
فليس غريباً تولِّي اليهود كنائسَه بعد هذا التولِّي

* * *

عبوديةُ الأنفس[4]

ليس يخلو زمانُ شعبٍ ذليلٍ من عليمٍ وشاعرٍ وحكيمِ
فرَّقتهم مذاهبُ القَوْلِ لكنْ جَمَعَ الآراءَ مقصدٌ في الصَّميم :

---

(١) الأممُ المحكومة لا يمكن أن تشارك حاكميها في الحكم مهما وضعوا لها من نظمٍ . شُريت : بيعت ، والشراة : البائعون .

(٢) إقبال توفي سنة ١٩٣٨م فهو لم يشهدْ حرب فلسطين ولم يرَ تسلُّطَ اليهود على أوربة وأمريكا ، كما رأينا . ولكنَّه نظر إلى الحوادث نظرة عارفٍ خبير .

(٣) تموت في شبابها ، والموت يمهل .

(٤) لا تخلو الأمم الذليلة من شعراء وحكماء وعلماء يسلكون مسالك شتَّى إلى غايةٍ واحدةٍ ، هي أن يروِّضوا الأمة على الخضوع ، ويمحوا من سجاياها الإقدام حتى ترضى بالرقِّ ، هذا مقصدُهم ، كلُّ تأويلٍ في القول تحيُّلٌ لهذا المقصد .

« علِّموا الليث جفلة الظَّبي وامحوا قصصَ الأُسْد في الحديثِ القديمِ[1]
همُّهم غبطةُ الرَّقيق برقٌ كلُّ تأويلهم خِداعُ عليمِ

***

الرُّوسُ الشُّيوعيون

إنَّ سَيرَ القضاء جِدُّ عجيبِ أيُّ سرٍّ حوى ضميرُ الزَّمانِ
ليس يألو الصليبَ سرّاً قَبيلٌ كان يرجو النجاةَ بالصُّلبانِ
أمرَ الوحيُ مُلحدي الرُّوس « هُدُّوا ما أقام القُسُوسُ من أوثانِ »

***

اليَوم والغَد

مَن عداه ليومِه في جهادٍ نورُ نفسٍ وشُعلةٌ في الكُبودِ
مالَه الحقُّ في مَتاع وهمٌّ يستسِرَّان في الغدِ الموعودِ
ليس أهلاً لمعرَك الغدِ مَن في سيره (اليومُ) ليسَ بالمعدودِ

***

المشرق

جَيبُ الشَّقائق من شَدوي غدا مِزَقاً ونسمةُ الصُّبْحِ رَوضاً تطلبُ الآنا[2]

---

(١) في هذا البيت مقصد القائلين المذكورين في البيتين السابقين .
(٢) أنا شدوت حتى مزَّقتْ شقائقُ النعمان جيوبها وجداً ، ونسيمُ الصبح لا يزال يطلب روضاً ينضر أزهارَه .

ما «مصطفى» أو «رضا» جلَّى حقيقتها فالروحُ في الشرق جسماً تطلب الآنا[1]
وحـقُّ ذاتـي عِقَـابٌ غيـرَ أنَّ لهـا ذا العصرُ جِذعاً وحبْلاً يطلب الآنا[2]

***

سياسةُ الإفرنج

يـا ربِّ نِـدُّك فـي غـربٍ سياستُـه وما تعبَّد إلا الهامَ والرُّوسا[3]
خلقتَ إبليس فرداً من لظى لهبٍ ومـن تُـرابٍ أقـامـت ألـفَ إبليسا

***

العبيد

تعلَّمتُ بين الغرب والشَّرق حكمةً أراها لأهلِ الرقِّ أجدى الفوائدِ :
فـلا مُلْـكَ أو فقـراً ودينـاً وحكمـةً يـؤسَّـس إلا فـوقَ صخـرِ العقـائـدِ
فـإمَّـا خـلا منهـا ضميـرُ جمـاعـةٍ فـأفعـالُ رعـديـدٍ وأقـوالِ هـامـدِ

***

إلى أهل مِصر

مـن أبـي الهـول أتتنـي نكتـةٌ وأبو الهول طَوى السرَّ القديمْ[4]

---

(١) لا مصطفى كمال ولا رضا بهلوي كان مظهراً لروح الشرق ، فهي تطلب الآن بدناً تظهر فيه .

(٢) وذاتي تستحقُّ العقاب بما دعت الناس إلى اليقظة والحرية ، ولكن العصر لا يزال يطلب حبلاً وجذعاً ليصلبني ليس قادراً على صلبي .

(٣) الروسُ : أي : الرؤساء ، أي : لا يعبد هذه السياسة إلا رؤساء أوربة وحكامها .

(٤) أبو الهول : رمز العقل والقوة ، رأسُ إنسان على جسم أسد .

بـــدَّلـــتْ سَيـــرَ شعـــوب جملـــةً قـــوَّةٌ لـــم يجْفُهـــا العقـــلُ الحكيـــم
طبعُهـــا فـــي كـــلِّ عصـــرٍ مـــائـــلٌ يُبـــدِلُ الشكـــلَ ويَبقـــى فـــي الصَّميـــم
فهـــي طَـــوراً فـــي حُســـام المصطفـــى وهي طَوراً في عصا موسى الكليم

***

الحَبشة

(١٨ آب سنة ١٩٣٥)

عِقبـــانُ أوربَّـــة بغيـــر علـــم فـــي جيفـــة الأحبـــاش أيُّ ســـمّ !
قد آن للمَيتةِ أن تَجيفا
حضـــارةٌ تكمـــلُ بـــالمَخـــزاة وعيـــشُ أقـــوامٍ علـــى الغـــارات
وكلُّ ذئبٍ طاردٌ خروفا
وجـــهُ الكنيســـة اكتســـى شَنـــارا رومـــا أراقـــت مـــاءَه نهـــارا
يا بابُ قد أضحى الورى أسيفا[1]

***

أوامرُ إبليس إلى أبنائه السَّاسة[2]

عليكـــم بـــالبَـــرَهْمَـــن فـــاربكـــوه بـــأشـــراكِ السيـــاســـة والحبـــالِ

---

(١) يعني : الباب رئيس الكاثوليك .

(٢) يصور الشَّاعر في هذه الأبيات عملَ السَّاسة بأوامر أبيهم إبليس . وإنما يأمرهم بإبعاد أهل الأديان كلِّها من الدِّين ، ولاسيما المسلمون ، هؤلاء الصابرون المستميتون . وقد خصَّ العربَ الذين نشأ الدين في حضانتهم ، والأفغان الذين تسيطر عليهم حمية الدِّين . . إلخ .
ثمَّ أوصاهم بإخراج إقبال من الرَّوض لأنَّ نَفَسهُ يشعل الحقائق ؛ أي : يثير النار في الشباب ، فيبعدهم عن سياسة إبليس .

رأصحابَ الزَّنانير اطردوهم ... من الدَّير القديمِ بالاحتيالِ
رذلكم الصَّبورُ على الرزايا ... ومَن هو بالمنايا لا يبالي[1]
فروحَ محمدٍ منه اسلبوه ... لتعملَ فيه أحداثُ الليالي
وفي العَرَب اقذفوا في كلِّ فكرٍ ... من الإفرنج ألوانَ الخيالِ
أرض العُرْب للإسلام كيدوا ... ليُسرعَ في الحجاز إلى الزَّوالِ
وفي الأفغان بالدِّين اعتصامٌ ... وليس عِلاجُ هذا بالمحالِ
عليكم بالفقيه فأخرجوه ... من الأرض المنيعةِ والجبالِ
وقُوَّاماً على الحرَم اسلبوهم ... لهم سُنناً تحيدُ عن الضَّلالِ[2]
غزالَ المسك من خَتنٍ أثيروا ... وخَلُّوا الأرض من هذي الغوالي[3]
وإقبالٌ له شَدْوٌ مثير ... به زَهَر الشقائق في اشتعال
من المَرج اطردوا هذا المغنّي ... لتحموا الناس عن هذا المقال

* * *

جماعةُ الأُمم الشَّرقية[4]

سُخِّر الماء والهواءُ مسخَّرْ ... ليس بِدعاً إنِ القضاءُ تغيّرْ
جبروتُ الفرنج غَرَّته رؤيا ... علَّها غيرَ ما رآه تُعبِّر
إنْ جنيوا للشرق طهرانُ صارت ... فلعلَّ التبديلَ للأرض يُقدَر

---

(١) ذلكم الصبور . . إلخ . يعني : المسلم .
(٢) يريد بقوَّام الحرم من تولى هداية المسلمين إلى دينهم في الحرم وغيره .
(٣) بلاد ختن في تركستان كانت معروفةً بمسكها ، وغزالُ تنٍ مشهور في الشعر الفارسي وما يتَّصل به .
ويريد الشاعر : أخلوا الأرض من المعاني الجميلة التي تعطرها . أي : أخلوا بلاد المسلمين من السنن القويمة ، والآمال العالية .
(٤) كتبت في شيش محل (دار أمير بهوبال) .

المُلْكُ الخالد

إنـي لغَـوَّاص المعـانـي فِطـرةً ... لكنَّنـي بَحـرَ السِّيـاسـةِ أحـذرُ
مـا إن يُحـبُّ الـدَّهـرُ مُلكـاً خـالـداً ... ولـو أنَّ فيـه مـن الـرُّؤَى مـا يسحَرُ
فَرهادُ أبقى الدَّهرُ نحتَ صخوره ... لـم يَبـقَ مـن بـرويـز مُلـكٌ يُـؤثَـر

***

الجمهورية

بـدا السـرُّ فـي قـولـةٍ مـن أريـبٍ ... ومـا كـان مـن قَبلـه يُعلـنُ[1] :
نظـامُ الجمـاهيـر حُكـمٌ بـه ... تُعـدُّ العِبـادُ ولا تـوزَنُ

***

أوربة وسورية

أهـدت الشَّـام إلـى الغـرب نبيًّـا ... هـو عَـفٌّ ومُـواسٍ وصَبـور
ومـن الغـرب إلـى الشـام هـدايـا ... مـن قمـارٍ ونسـاءٍ وخمـور

***

من مُوسولِيني
(إلى أنداده في المشرق والمغرب)

أرى العصرَ يأبى من مُسولينَ جُرمَه ... وأخيـارُ أوربـة علـيَّ غِضـابُ

---

(١) سيظهر .

كـــلانـــا بـــآلاتِ التمـــدُّنِ آخـــذٌ ... أتنقِـــم أفعـــالَ السُّيـــوفِ حِـــرابُ
وقـــد نقَمُـــوا منِّـــي غـــرامَ تَملُّـــكٍ ... أمـــا ثـــار منهـــم بـــالضِّعـــاف ضِـــرابُ
لِمَنْ شعبَذاتُ الحكمِ تُبقي ممالكاً ... ولا مُلـــكَ أو ملـــكٌ بهـــنَّ يُصـــابُ
أينفُـــخُ فـــي الأعـــواد أبنـــاءُ قَيصـــرٍ ... ويُجبَـــى إليكـــم عـــامـــرٌ ويبـــابُ[1]
نهبتـم خيـامَ البـدو والـزَّرعَ والقُـرى ... وكـــمْ كـــانَ منكـــم للعُـــروشِ نِهـــابُ
قصَـدنـا مـن التمـديـنِ قتـلاً وغـارةً ... أأمسُكـــم فخـــرٌ ويَـــومـــيَ عـــابُ ؟

* * *

شكوى

مستقبلَ الهندِ منْ يدري ؟ وما بَرِحَتْ ... يا ويحها ، درَّةً في التَّاج تُرتَهنُ[2]
دِهقـانُهـا مـن ظـلامِ اللَّحـد مطَّـرح ... ولـم يزل مِزَقاً تحت الثرى الكفَنُ
الجسـمُ والـرُّوح للبـاغيـن قـد رُهنـا ... لـم يَبـق فـي أرضهـا دارٌ ولا سَكَـنُ
رضيـــتَ رقّـــاً لأوربَّـــة بـــلا أنَـــفٍ ... فمنكَ شكواي لا منها ، وبي حَزَنُ

* * *

انتداب

مَلَكُ الحضارةِ أين يُحتَم سَيرهُ ؟ ... في عصرنا هذا السؤالُ يسيرُ :
فـي حيـثُ لا خمـرٌ ولا قَمْـرٌ ولا ... ضيـقُ الثيـاب علـى النِّسـاء يجـورُ
والـرُّوحُ فـي بَـدَنٍ قـويٍّ خـافـقٌ ... لكـن علـى سَنـن الجـدودِ يسيـرُ
حيـثُ المـدارسُ غـائـضٌ ينبـوعُهـا ... وابـنُ البـداوة فـي الـذَّكـاء جَسـورُ

---

(١) يشغل أبناء الرومان بالزهر والموسيقا وغيرهم يملكون الأرض ، ويضربون الخراج حتى على الصَّحارى .

(٢) كان الإنكليز يقولون : إن الهند أثمنُ درَّةٍ في تاج الإمبراطورية .

يُفتي جهابذةُ الفِرنجة أنَّما هذي البقاعُ منَ التمدُّنِ بُور[1]

* * *

السِّياسةُ اللاَّدينيَّة

ما الحقّ مخفٍ عن فؤاديَ سِرَّه فلقد حباني الله قلباً مُبصرا
فسياسةُ اللادينِ عندي خِسَّةٌ مات الضميرُ بها وإبليسُ افترى[2]
لمّا قلَى حكمُ الفرنج كنيسةً ساسوا كشيطانٍ بلا قيدٍ جرى
شَرِهَتْ لأموالِ العباد كنيسةٌ فإذا الخَميس سفيرُها بين الورى[3]

* * *

شبكة التمدين

أمانتُها علَتْ عن كلِّ ريبٍ وإقبالٌ مُقِرٌّ دون نُكرِ
فأوربة نصيرةُ كلِّ شعبٍ تشكِّي الدهرَ من ظلمٍ وضُرِّ
كراماتُ القساوسِ أنْ أضاؤوا سراجَ الكهرُباء بكلِّ فِكرِ
ولكنْ مِن فلسطينَ بقلبي وللشَّام الكسيرةِ حَرُّ جَمرِ
وتلكم عُقدةٌ ليست لحلٍّ تُلاقي كلَّ تدبيرٍ بِعُسرِ
من الترك الجُفاةِ نَجوا فلاقَوا بأشراكِ التمدُّن شَرَّ أسرِ[4]

* * *

---

(١) حيثما وُجدَ الناس على الأخلاق القويمة والفطرة السليمة قال الفرنج هذه الأرض في حاجةٍ إلى التمدُّن ، فأرسلوا إليها ملك التمدُّن باسم الانتداب .

(٢) إبليس افتراها .

(٣) الخميس : الجيش .

(٤) في هذا استهزاء : يقول : إن أوربة ادَّعت أنها أنقذت الشام وفلسطين من قسوة الترك ، ولكنها أوقعتهم في شرٍّ أسر .

نصيحة

قال لُرْدٌ من الفرنج لنَجلٍ ... ابغِ مَرأىً يدومُ فيه المراد[1]
أظْلَمُ الظُّلم للمساكين إعلامُ ... خِرَافٍ شريعةَ الآساد[2]
إنَّ للملك سِرَّهُ فاكْتُمَنْه : ... لا تَرُم بالسُّيوفِ قهرَ العباد
وبحمض التَّعليم فاغمِس نفوساً ... ثمّ صُغْ طينَها وفاقَ المُراد
أينَ منه الإكسيرُ ؟ هذا محيلٌ ... جَبلَ التِّبْرِ كَومةً مِنْ رماد

* * *

قرصانُ وإسْكَنْدر

إسكندر :

جزاؤك في سَلاسلك ارتهانٌ ... أو التصميمُ من سيفي العتيقِ[3]
فقد صيرتَ وُسعَ البحر ضيقاً ... بما أمعَنتَ في قطع الطَّريق

القرصان :

سِكندرُ ! للفتوة لم تَوَفَّقْ ... أيجمُلُ بالفتى فَضحُ الرَّفيقِ ؟
فإنَّ القتلَ دَأْبي لا أماري ... كذاك القتلُ دأبُك يا صديقي
كلانا اليوم قرصانٌ : ببرٍّ ... تَصولُ ، وَصُلتُ في بحرٍ عميق

* * *

---

(١) أطلب المنظر الذي لا تنتهي منه العين ، أي : المطمع الذي لا يحدُّ .
(٢) أظْلمُ الظُّلم أنْ تعلمَ الغَنَمُ سيرةَ الأسد : أي : تعلم الأمم الذليلة طريق الحرية والقوة .
(٣) صمم السَّيف : أصاب المفصل ، فقطعه .

عصبةُ الأمم[1]

مِسكينةٌ منذ زمان تُحتضرْ ... لا فاهَ مِقوَلي بسيِّىء الخَبرْ[2]
وموتُها محتَّمٌ لكنَّما ... يدعو القُسُوسُ أن يزولَ ذا الخطر
عجوزُ أوربةُ يجوز عَيشُها ... على رُقَى إبليسَ أياماً أُخَر[3]

***

الشَّامُ وفِلسطين

مَرحَى لحانات الفرنج فقد ... ملأت بهنَّ زجاجَها حَلَبُ
إنْ في فلسطين اليهودُ رَجَتْ ... فلْيأخذَنْ إسبانيا العَربُ
للإنكليز مقاصدٌ خفيت ... ما إن يُراد الشَّهْدُ والرّطَب[4]

***

أئمةُ السِّياسة

ما رجائي بساسة قد أسفُّوا ... وإلى الأرضِ أخلدوا إدراكا
نظراتٌ إلى ذُبابٍ ونملٍ ... فهمُ العنكبوتُ مدَّتْ شِباكا
حبَّذا الركبُ قد هداه أميرٌ ... ذُو مرامٍ تُجاوز الأفلاكا

***

---

(١) العنوان في الأصل : جمعية أقوام .
(٢) يعني لا أودُّ أن أخبرَ بموتها .
(٣) الظاهر أنَّ الشاعر نظم هذه الأبيات حينما كانت عصبة الأمم في آخر سنواتها .
(٤) بلاد العرب كلُّها معروفةٌ في الهند بالنخل ، ويقول الشاعر ليس قصد السياسة الإنكليزية ما تعلن من عمرانِ البلاد بل لها مقاصدُ خفيَّةٌ .

نزعات العبودية

بـأسبـابِ سُقـم الشُّعـوبِ خَفـاءٌ ... يقصِّـر فـي شـرْحِهـنَّ البيـانْ :
بشـرع الأسـود إمـامُ العبيـد ... يـرى دائمـاً حِكمـةَ الثُّعلبـانْ[1]
كليـمُ الإلٰـه يُـرَى لعنـةً ... علـى قومـه فـي خُطـوب الزَّمـانْ
إذا كـان فـي السـرّ هـذا الكليـمُ ... لقُـوّةِ فـرعـونَ طـوعَ البنـانْ

* * *

صلاة العبيد[2]

قـالَ بعـدَ الصَّـلاة حِلـفُ جهـادٍ : ... كـم يطيـلُ الصَّـلاةَ فيكـم إمـامُ
ما درى ذاكُمُ المجاهدُ المؤمنُ الغِرُّ ... صـلاةُ العبيـد كيـف تُقـامُ
كـم لـدى الحُـرِّ فـي الحيـاةِ كفَـاحٌ ... غَيـرةُ الحـرِّ للشعـوب قِـوامُ
حُـرم العبـدُ حـرقـةَ الكـدِّ عجـزاً ... فعلـى وقتِـه المُضـيُّ حَـرامُ
لا تعجَّـبْ إذا أطـال سجـوداً ... مـا لـديـه سـوى السُّجـود مَـرامُ
رَبِّ وَفِّـقْ أئمـة الهنـدِ يـومـاً ... لسجـودٍ تحيـا بـه الأقـوامُ

* * *

---

(١) أسباب مرض الأمم أئمةٌ أذلَّةٌ ، يرون في شريعة الأسود فلسفةَ الثعالب ، كالذين حادوا بالمسلمين عن شريعة الحياة والقوة إلى مذهب الخنوع والاستكانة . والحكمة هنا الفلسفة ، والثُّعلبان : الثعلب الذكر .

(٢) جاء إلى لاهور وفدٌ من الهلال الأحمر التركي فصحبهم إقبال في صلاةٍ بالمسجد الكبير ، فأطال الإمامُ الصَّلاة ، فسأل أحدُ رجال الوفد : لماذا يطيل الصلاةَ إمامُكم هذه الإطالة ؟ فكتب إقبال هذه الأبيات .

إلى عرب فِلسطين

لا يـزالُ الـزَّمـانُ يَصلَـى بنـارٍ ... لم تزل في حَشاكَ دونَ خمودِ[1]
لا دواءٌ بلنـــدن أو جنيـــوا ... بـوريـدِ الفـرنـجِ كـفُّ اليهـودِ[2]
ومـن الـرقِّ للشعـوبِ نجـاةٌ ... قـوةُ الـذَّاتِ وازدهـارُ الـوجـودِ

الشَّرق والغربُ

علَّـة الشَّـرق ذِلـةٌ واقتـداءُ ... ونظـامُ الجمهـور فـي الغـرب داءُ
مَـرضُ القلـب والبصيـرةِ فـاشٍ ... مـا بشـرقٍ ولا بغَـربٍ شفـاء

* * *

نزعات التسلُّط
(إصلاحات)

أرى رحمـةَ الصَّيـاد سِتـراً لقهـره ... ولم يُجدِ فينا ذا الصفيرُ المجدَّدُ[3]
وقـد زيَّـن الأقفـاصَ بـالـزَّهـر ذابـلاً ... لعـلَّ أسيـراً لـلإسـار يُغَـرِّدُ

* * *

---

(١) يعني : أن النار التي سرت في الزمان من تاريخ المسلمين لا تزال في نفس المسلم لم تخمد .

(٢) يعني : يقبض اليهود على وريد أوربة .

(٣) يقصد الشاعر ما دعاه الإنكليز إصلاحاً ، حين جعلوا للهند نوعاً من الحكم الدَّاخلي ، يقول :
ما يزال الصيَّاد قاسياً ، وإن تظاهر بالشفقة ، ولا يرقه أن تجدد له غناء . وإنما همُّه أن يرضى الأسير فهو يزيِّنُ الأقفاص بزهورٍ لا نضرة فيها ، لعلَّ الطائر يرضى بقفصه .

القسم السّادس

أفكار محراب غل الأفغاني

للشاعر إعجابٌ بالأفغان لقوتهم وبسالتهم ، واعتزازهم بجبالهم ، وحميتهم الإسلاميَّة ، وقد تخيَّل الشاعر أنَّ شاعراً (محراب غل) أنشأ هذا الشعر الّذي في الصَّفحات التَّالية ، بيَّنَ عمَّا في نفوس هؤلاء النَّاس وما في معيشتهم كما يُريد الشاعر (إقبال) .

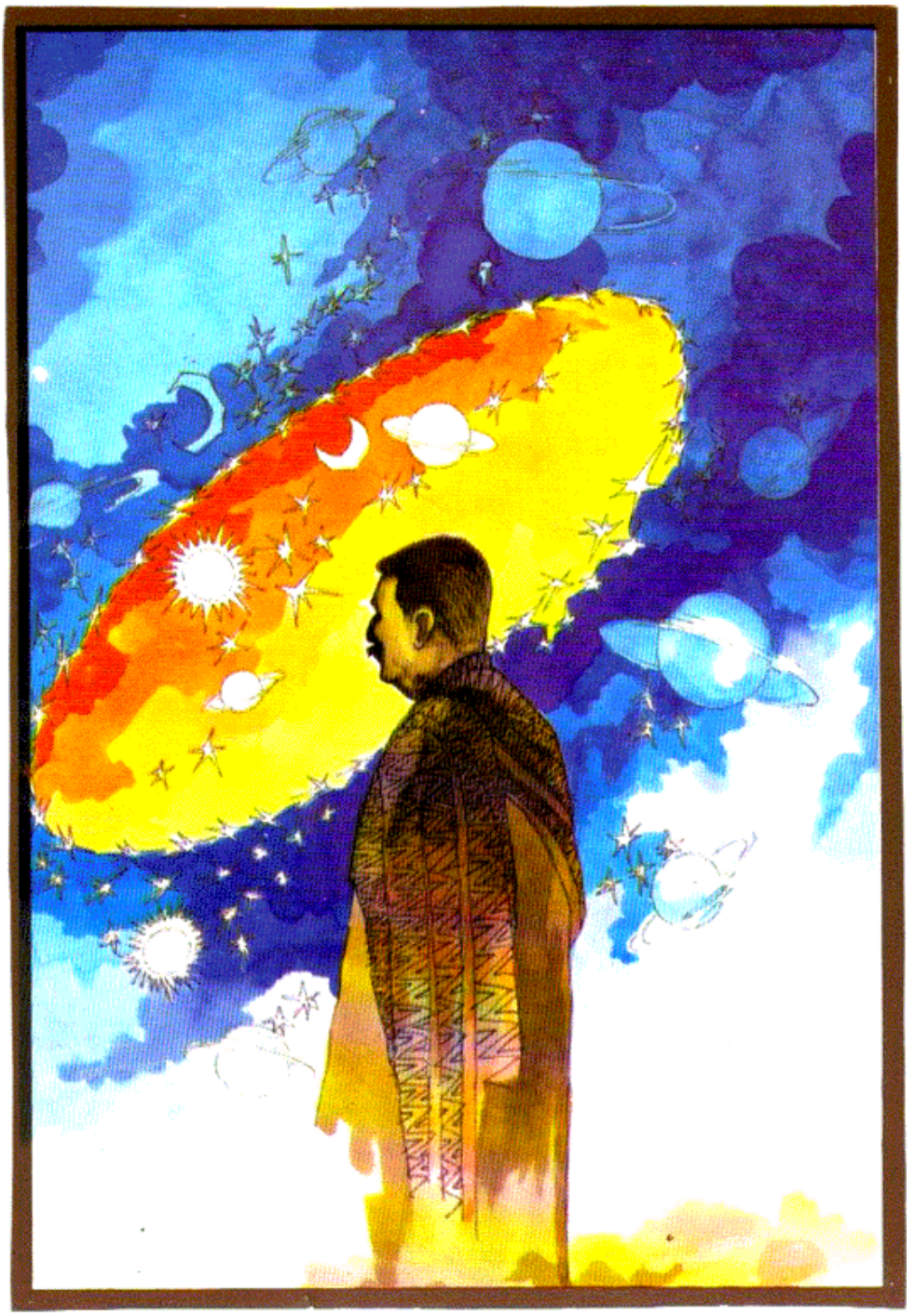

دگرگوں ہے جہاں، تاروں کی گردش تیز ہے ساقی!
دلِ ہر ذرّہ میں غوغائے رستاخیز ہے ساقی!

- ١ -

يـا جبـالـي أيّـانَ عنـكِ المسيـرُ ... وتـرابُ الآبـاء هـذي الصُّخـورُ
لا زهـورٌ ولا صَـدى عنـدَليـبٍ ... فيـكِ منـذُ الآزال تـأوي الصُّقـورُ
جنّتـي فيـك مَخـرمٌ وشعـابٌ ... مـاؤك النُّـور ، والتُّـرابُ العبيـرُ
لـن يكـونَ الشَّـاهيـنُ عبـدَ بُغـاثٍ ... ألحفـظِ الأبـدانِ روحـي أُبيـرُ
خلعـةُ الإنكليـز أم سُحْـقُ ثَـوْبٍ ... إيـهِ فقـري الغيـور ! مـاذا تشيـر ؟

- ٢ -

تنـافـرُ النَّـاس دائـمٌ أبـداً ... لسـتُ ولا أنـتَ القضـاءَ فصَّلَـهُ
في الذاتِ غُصْ ، للزَّمان ذا أمَلٍ ... دواؤه فـي الجـروح أرسلـه
تبقـى علـى الـدهـر واحـداً بطـلاً ... إنْ كان في القلب « لا شريك له »

- ٣ -

يجـوز أن تُبـدَل أنـتَ ، لا تَخَـلْ ... بـدعـوةٍ أنَّ القضـاءَ يُبـدَّلُ
إذا سـرى فـي ذاتـك انقـلابُهـا ... فجـائـزٌ أنَّ الفضـاءَ يُبْـدَلُ
يبغـي الشـرابَ والفِنـاءُ إذ تـرى ... رسـمَ « السُّقـاةِ » والإنـاءَ يُبْـدَلُ
تـدعـو بتحقيـقِ الـرَّجـاء جـاهـداً ... ودعـوتـي أنَّ الـرَّجـاء يُبْـدَلُ

- ٤ -

ومـا فَلَـكٌ جـائـرٌ فـي السَّيَـرْ ... ومـاذا ذكـاءٌ ومـاذا القَمَـرْ ؟
أرى رَكْبَهـا جـاهـداً فـي المسيـر ... وأقْعَـدَهـا طـولُ هـذا السَّفَـر
سِكنـدرُ زمْجَـرَ كـالـرَّعـد حينـاً ... وعنـدك يـا مـوتُ صِـدْقُ الخبـر
وعـائـثْ بـدهلـي يـدا نـادرٍ ... بضـربـةِ سيـفٍ حكـى فـاخْتَصَـر[1]

---

(١) نادر شاه : ملك إيران وأفغانستان ، فتح دهلي ، وتوفي سنة ١١٦٠هـ .

وتبقى الجبالُ وأفغانُها ... لك الملك والحكم ربَّ القُدَر !
تُذلُّ الحوائجُ صيدَ الرِّجال ... ترى الليث كالثَّعلب المحتقَر
إنِ الذَّاتُ أيَّدها فَقْرُها ... فعندي وعندك مُلك البَشَرْ
قِوامُ الشُّعوب بحُرٍّ فقيرٍ ... إلى سُدّة المُلك ما إنْ نظر

- ٥ -

مدارسُ ثم ضوضاءٌ ولهوٌ ... وغمٌّ دام في العيش الوفير
وسمُّ الحرِّ هذا ليسْ علماً ... إذا كان الجَدَا كفَّ الشعير[١]
وما أدبٌ وفلسفةٌ غناءٌ ... قِوام الفنِّ في جَهدِ المسير[٢]
تحكَّمَ في الطبيعة ربُّ فنٍّ ... يضيء الليل كالصُّبحِ المنير
فربُّ الفنِّ مِن بركاتِ فنٍّ ... يطوعُ لحكمهِ كلُّ العَسير
وذلك إن يشأ قَطَرَتْ عليه ... أياةُ الشَّمسِ كالطلِّ النَّضير[٣]

- ٦ -

عالَمُ التَّجديدِ إن يظفرْ بحرٍّ ... موجِدٍ منْ حوله طافَ الزمانْ
لا تَدعْ ذاتَك بالتَّقليدِ لَغواً ... جوهرٌ فردٌ فحُطْه بصِوانْ
باركَ التَّجديدُ قوماً ليس فيهم ... غيرَ حفلِ الأمس ، ذِكرى وعِيان[٤]
خشيتي أنَّ وغى التَّجديد في الشَّرق ... على التَّقليدِ للغربِ دِهان

- ٧ -

تبدَّل الأقوامُ في البُلدانِ ... في الروم والشام وهندُسْتان

---

(١) العلم الذي جدواه كفٌّ من شعير ؛ أي : متاعٌ قليل ، ليس علماً ولكن سُمَّاً للأحرار .
(٢) الفنُّ بالجهد المستمر لا بالأدب والفلسفة .
(٣) ربُّ الفنِّ إن شاء قطرت عليه أياةُ الشمس (أي شعاعها) كالنَّدى ، فجعلها مادة فنه .
(٤) التجديد بركةٌ لقومٍ لا يذكرون ، ولا يرون إلا صورَ الماضي .

يـابـن الجبـالِ هُـبَّ للـزَّمـان وأدْرِكَـنْ ذاتَـك بـالعـرفـانِ

ذاتَك بالعِرْفانِ

يا غافل الأفغانِ

ذا مـوسـمٌ ومـاؤه عُبـابُ وعَسجـداً يُنبـتُ ذا التـرابُ

مـن لـم يـروِّ زرعَـه احتسـابُ فكيـف يُـدعَـى الغِـرُّ بـالـدهقـان

ذاتَكَ بالعِرْفان

يا غافلَ الأفغان

مـا لـم يَهِـجْ فـي مَـوْجِـهِ الـزخَّـارِ فـأيُّ بحـرٍ ذاك فـي البحـار ؟

مـا ليـسَ فيـه ثـورةُ الإعصـارِ فكيـفَ يُـدعـى عـاصـفَ الأكـوان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

مـن اهتـدى ونفسَـه أصـابـا مقلِّبـاً فـي طينـه التـرابـا

فحـرثُ ذا العبـدِ الـذي قـد طـابـا يُفـدَى بكـلِّ الجـاه والسُّلطـان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

جهلُـك هـذا مـا بـهِ مِـنْ عـارِ قـد صيَّـر الجهـلَ مـن الفَخـار

كـم عـالـمٍ فـاضـلٍ ممـاري متـاجـرٍ بـالـدِّيـن والإيمـان

ذاتَك بالعِرفان

يا غافلَ الأفغان

- ٨ -

يـدَّعـي الـزاغُ أنَّ ريشَـكَ قُبـح ويقـول الخفَّـاش : أعمـى جهـول

مـا رُذال البُغـاث يـا صقـرُ ! تـدري فـي عَنـانِ السَّمـاءِ كيـفَ تصـول

كيـف تـدري بحـالِ طـائـرِ عـزم كلُّـه فـي المطـار عيـنٌ تجـول

- ٩ -

لا يسُـفّ العشـقُ دأبَ الهـوسِ ... بـذبـابٍ بـازيـاً لا تَقِـسِ
ربَّ روضٍ حـال حتـى ليَـرىٰ ... عنـدليـبٌ عشَّـه كـالمحبِـس
مُـزمـعُ الأسفـار لا يبغـي صـدىً ... مـنْ أذانٍ بـرحيـل الغلَـس
أتُـرى قـافلـةُ المـوج لهـا ... فـي مسيـر حـاجـةٌ بـالجَـرس
خـدعَ العيـنَ فتـى مـدرسـةٍ ... فَبَـدتْ فيـه حيـاةُ الأنـسِ
وهـو مَيْـتٌ ومـن الغـرب اجتـذى ... مـا سـرَىٰ فـي صـدره مـنْ نَفَـس
إنْ تُـرِد تـربيـةَ القَلْـبِ فَمِـن ... نظـر المـؤمـنِ شَـزْراً فـاقبِـس

- ١٠ -

سـوادُ عيـون عِتْـرتـهِ فَتـيٌّ ... حليـفُ طهـارةٍ وفتَـى ضِـرابِ
يُـرى فـي السلـم ظبيـاً ذا جمـالٍ ... وفـي يـومِ الكـريهـة ليـثَ غـابِ
بـه نـارٌ تُحـرِّقُ كـلَّ شـيءٍ ... وحسـبُ الغـاب مـن شَـرر الثِّقـابِ
حبـاه الله أبَّهـةً ومُلكـاً ... بفقـرٍ حيـدريٍّ واحتسـابِ
سبيـلُ التَّـاج حسـرُ الـرأس عنـه ... فـلا تنظـرْ إليـه بـارتيـابِ[1]

- ١١ -

فـي بـارحـاتـك لألأتْ أنـوارُه ... يَسطيـعُ نُـوراً ذا السِّراجُ الخابي[2]
يشكو الضَّعيفُ من الزمانِ صُروفَه ... والحـرُّ فيـه بـاسـمٌ لِحـرابِ
مِنْ صوتِ طير الصُّبح يدهشُ ذا الفتى ... أتـراهُ أهـلَ تطـاعـنٍ وضِـرابِ

---

(١) وهو حاسر الرأس ولكنَّه طموحٌ إلى التاج ، أو هو في همته وعزَّته كصاحب التاج ، فلا تحقره بأنَّه حاسر .

(٢) هذا السراج الخابي هو الذي أضاء لك البارحة ، فهو أهلٌ لأن يضيء مرَّةً أخرى ، يعني : الإسلام .

حـذري لأنَّـكَ فـي طِبـاع طفـولـةٍ والغـربُ تـاجـرُ سُكَّـرٍ وجُـلابِ[1]

- ١٢ -

بـــلا ديـــنٍ ولا تيـــنٍ هـــوَتْ فـــي الفـــخّ رجـــلاه[2]
دواءُ العـــاجـــزِ المغلـــوبِ « لا غـــلّابَ إلا هُـــو »
وصيَّـــادُ المعـــانـــي مـــا رَجَـــتْ فـــي الغَـــرب عينـــاه
فضـــاءٌ مـــونِـــقٌ لكـــنْ غـــزالُ المِســـك خَـــلاَّه[3]
يقـــوّم ذاتَـــه سحَـــراً بـــدَمـــعِ العَيْـــنِ أوّاه[4]
فهـــذا الـــزَّهْـــر أحسَنُـــه علـــى الأمـــواهِ تلقـــاهُ
وديـــرُ الكـــون ، زُونُ الـــرِّيـ ـــح والألـــوانِ معنـــاهُ[5]
علـــى الكُفـــار مُستـــوْلٍ وذو الإيمـــان مـــولاه
إمـــامَ المسجـــدِ ! امْنَعْـــهُ أميـــراً حيـــن يغشـــاهُ
زوى المحـــرابُ حـــاجِبَـــه ولـــم تُعجِبْـــهُ تقـــواه[6]

- ١٣ -

دنيـــاك فـــي عينـــيَّ شَـــيءٌ آخـــرُ أنَّـى لعينـكَ ـ ليـت شعـري ـ تَظْهُـر

---

(١) يخاف على المسلم أو الشرقي لأن فيه طبع الطفل يحبُّ السكر والجلاب . وأوربة تحسن التجارة بهما ، فهو يتهافتُ على تجارتها .

(٢) يشير إلى مصطفى كمال واتِّباعه سياسةً لا دينيةً ، واتِّخاذه الحروف اللاتينية للغة التُّركية .

(٣) لا يجد صياد المعاني في أوربة غزالاً مسكياً يصيده فإنما هي فضاءٌ لا صيد فيه . أي لا يجد المعاني الجميلة التي يحبُّها .

(٤) الأواه : المتعبِّد ، الرقيق ، كثيرُ الدعاء .

(٥) هذا العالم الذي هو معرض لأصنامٍ من الألوان والروائح ، يستعبد الكفرَ ، ولكنَّه مسخرٌ للمؤمن .

(٦) تخيل زاوية المحراب تقطيباً لصلاة أميرٍ ليس فيها معنى الصلاة .

مـاذا التقلّبُ فـي عقـول شبـابنـا ... فـي كـلِّ صـدرٍ قـد تبـدَّى مَحشـرُ
شيـخَ المسـاجـدِ! مـا دُعـاؤُك سُحْـرةً ... أبـه الحيـاةُ بـلا جهـادٍ تَظفَـرُ[1]
ما « الذَّات » يُرجى في رِباطٍ خَلقُها ... هـل للشَّـرار مـن الـرَّمـاد تَسعُّـر[2]

ـ ١٤ ـ

كـلُّ عشـقٍ دون إقـدامِ هـوى ... ويـدُ الله بعشـق مخطـر
ويلتـا مِـنْ تـرفٍ ! أيـن فتـىً ... تَخِـذَ الأهـوالَ زاد السَّفَـرِ
خَلـوةُ الأطـوادِ ليسـت وَحشـةً ... يَعْـرِفُ « النَّفس » بهـا ذو البَصَـرِ

ـ ١٥ ـ

عِلـمُ فقـرٍ لسـالـكٍ غيـرُ صَعْـبِ ... حـدَّثَ النـاسَ عـن هُـداه الضميـرُ
لا يكـون الفـولاذُ جـوهـرَ سَيـفٍ ... إنْ يكـنْ فـي الطبـاع منـه حـريـرُ
إنَّ قَهـر الإلٰـه فقـرٌ ذليـلٌ ... وسبيـلُ السُّلطـانِ فقـرٌ غَيـورُ
قـد سبـاك الفـرنـجُ نفسـاً ولكـنْ ... أنـت يـا مـؤمـنُ البشيـرُ النـذيـرُ[3]

ـ ١٦ ـ

مَـوتُ الشُّعـوب بُعـدُهـا ... عـن جَـذَبـاتِ المـركـزِ
والـذَّاتُ إمَّـا رُكـزت ... فللمعـالـي تُـركَـزِ
فقـرٌ تـراه شـاكيـاً ... جَـوْرَ الـزَّمـان اللحـزِ
بـاقٍ عليـه مسحـةٌ ... مـن اجتـداءِ الكَـزِزِ
ولـم يـزل مُيسَّـراً ... للبـرِّ فعـلُ المعجِـزِ
أنْ يجعـلَ الصُّخـورَ كـالـذرّات غَيـر مُعجَـزِ[4]

---

(١) في الأصل شيخ الحرم ، والمراد به المساجد عامَّة .
(٢) الرِّباط : مقام الصُّوفية ، وفي الأصل خانقاه .
(٣) جاء هذ المصراع في الأصل بالفارسية .
(٤) لا يحول دون همة الحرّ شيء من عالم المادَّة فهو يحيل الصخور ذراتٍ ، فلا تكون في=

فأين يا مؤمنُ أنتَ اليومَ لم تُبَرَّز
ما في جهادٍ لذةٌ جَمْرُكَ فيهِ مُعوزي[1]
يا شَمْسُ من سُرادِقِ المشـ ـرقِ هيَّا فابرُزي
واكسي جبالي حُلَّةً تُزهىٰ بلون القُرْمُزِ

- ١٧ -

إنْ يكن في الألوف ربٌّ يقينِ نفَخَ النارَ في شَبابٍ وشِيْبِ
ربما تنشىء الصَّحارى فقيراً يخلقُ الدرَّ من حصىً في الجيوب[2]
بيراعٍ لكَ اكتبنْ لك حظّاً لم يَخُطَّ الجبينَ ربُّ الغيوبِ[3]
ذا الفضاء الذي يُسمَّى سماءً ليس شيئاً لدى العُقاب النجيبِ
هو فوق الرؤوسِ يُدْعىٰ سماءً وهو أرضٌ تحت الجناحِ الهَبوبِ

- ١٨ -

أيُّ قولٍ لشيرشاه رشيدٍ في اختلافِ القبيل ذلّ العبيدِ[4]
خلعوا ثوبَ أمَّة جَمعتْهم وازدهوا بالوزيرِ والمحسودِ[5]
ذهبَ الدِّينُ في الجبال شعاعاً كلُّ حزبٍ للُبده في سجودِ[6]
حَرَمٌ فيه حُرمةُ اللاَّت ترعى فحباكَ المولى بضربٍ سديدِ[7]

= طريقه عقباتٌ .

(١) ليس في الجهاد لذةٌ ما لم تكن فيه حرارةُ الإيمان . وجمرُ المؤمن يفتقد اليوم في الجهاد .

(٢) الجيوب وجه الأرض ، وهو يشير إلى الرسول صلوات الله عليه وسلامه .

(٣) اكتب حظك بقلمك ، فالله تعالى لم يكتب على جبينك مستقبلك ، كما تزعم .

(٤) شيرشاه : أحد أمراء الأفغان .

(٥) الوزير ، والمحسود من قبائل الأفغان في إقليم الحدود من باكستان .

(٦) اللبد : الصَّنَم .

(٧) هذا حرمٌ ولكن فيه أصنام . فالله يوفقك لضربٍ تكسرُ فيه الأصنام ، كما كسر الرَّسولُ=

- ١٩ -

ليس الذي يُدركُ الألوانَ بالبَصرِ ... بل مُغْتَنٍ عن ضياءِ الشَّمسِ والقَمَرِ[١]
يا مؤمناً قد شأى الإفرنج منزلَةً ... تَقدّمَنْ . ليس هذا مُنتهَى السَّفرِ
وحانةُ الغَرْبِ للصَّادي مفتَّحةٌ ... ما السُّكر فيها بعلم العصر بالنُّكُرِ
لك المماتُ بهذا السُّكْرِ مُستترٌ ... إنْ لم يكن فيك للتَّوحيدِ مِنْ شَرَرِ[٢]
هل يَسَمَعنَّ بنو الخانات موعظتي ... في شملةٍ لستُ ذا تاجٍ ولا سُرُرِ؟[٣]

- ٢٠ -

مقاصدُ الفِطْرةِ العلياء يحفظُها ... مَن عاش في البيد أو في الطَّود إنسانا
يراقبُ السِّحرَ في التمدين يُبطله ... في فقره أودَعَ الخلاَّقُ سُلطانا
للحُسْنِ واللُّطفِ صاغَ الروضُ بلبلَه ... وتُنشىءُ البيدُ للإقدام عِقبانا
يا شيخُ كم تُعجِبُ الأبصارَ مدرسةٌ ... لكنَّ في البيد فاروقاً وسَلْمانا[٤]
هل يعرفُ الدَّهر للإسلام منْ شبَهٍ ... في نشوةٍ تتحدَّى السَّيفَ غضبانا

* * *

= أصنام الكعبة .

(١) ليس بمبصر الذي يرى الألوان ، بل ما أدرك الحقائق والأسرار التي لا يحتاج في رؤيتها إلى الشمس والقمر .

(٢) لا ضير في أن تأخذ علومَ العصر وتنتشي بها ، ولكنَّ الهلاكَ فيها أن تغفل بها عن الإيمان والتَّوحيد .

(٣) الخانات : جمع خان ، ومعناه : الأمير . يعني يسمع هؤلاء الأمراء قولي وأنا في ثيابِ خشنةٍ ، لست ملكاً ولا أميراً .

(٤) يعني : الأصحاب الكرام ، مثل : عمر الفاروق ، وسلمان الفارسي .